مشروع إعداد نسخة إلكترونية
لحولية كلية اللغة العربية بالمنوفية
إعداد وتنفيذ
أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد في الكلية

من بلاغة القرآن الكريم
في بيانه عن أسماء الجنة والنار

الدكتور
سعيد أحمد جمعة
مدرس البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية بالمنوفية
جامعة الأزهر

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد السابع عشر (المجلد الثاني)، مطبعة الحرمين ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على خاتم النبيين. سيدنا محمد. وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. . . . وبعد

فإن شطر البلاغة القرآنية قائم على تخير اللفظ الأخص بالمعنى، والكاشف عنه، ويكمن الشطر الآخر فى نظم هذه الألفاظ فى صورة هى الأعلى إذا ما قورنت بغيرها فى تأديتها للمعنى، يقول الإمام عبد القاهر ـ رحمه الله ـ فى تحفته دلائل الأعجاز. [ولا جهة لاستعمال هذه الخصال ـ يعنى حسن الدلالة وتبرج الدلالة ـ غير أن تأتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذى هو أخص به. وأكشف عنه. وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية][1].

فهو يؤكد على أن الدلالة لا تحسن. ولا تتم، ولا تتزين إلا بلفظ مختار، . . . لفظ مخصوص بالمعنى، كاشف عن المراد. يكسب الدلالة نبلا، وتظهر به المزية.

وهذا يؤكد أن اصطفاء الكلمات. وانتقاءها دون أخواتها هو الباب الأول للبحث البلاغى، لأنه الباب الأول لإقامة البيان العالى. وعلى رأسه بيان الوحى (القرآن الكريم، والسنة الشريفة).

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ص ٤٤ . ت/ محمود شاكر . مطبعة الخانجى بالقاهرة.

والجاحظ ـ رحمه الله ـ يؤكد هذا حين قال: [والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى، والبدوى والقروى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ .....إلخ][1].

وإذا كانت البلاغة العربية معنية باللفظة، واختيارها. فإن مما يلفت النظر فى القرآن الكريم هذا التنوع فى أسماء الجنة، وكذا فى أسماء النار والمعلوم سلفا. أن الجنة والنار علمان على دار النعيم ودار العذاب فى الآخرة. فالصالحون من المؤمنين جزاؤهم فى الآخرة الجنة، والكافرون من الناس جزاؤهم فى الآخرة النار، .... إلا أن القرآن الكريم عبر عن دار النعيم فى بعض المواضع بأسماء أخرى، فتراه مرة يعبر عنها بالفردوس..، ومرة أخرى بـ «عدن» ومرة ثالثة بـ. دار القرار ...إلخ.

وليست هذه أماكن خارج الجنة، بل هى الجنة لا غير.

وكذلك الحال فى دار العذاب ـ نعوذ بالله منها ـ فلقد وردت مرة باسم الجحيم وأخرى بكلمة «لظى» وثالثة بـ «جهنم».....إلخ.

فما وجه البلاغة فى ذلك؟ وما الخصيصة الكامنة فى هذه الأسماء حتى تصطفى من دون غيرها؟ ومن هم أصحاب كل اسم؟ وما أثر السياق والمقام فى هذا الاصطفاء ؟..... .

ومن هنا يتحدد عمل هذا البحث.

فهو بحث بلاغى، يحاول الكشف عن وجه الإعجاز فى اصطفاء الأسماء المتنوعة للجنة والنار، من خلال الكشف عن سياق ومقام كل اسم.

---

(١) الحيوان لأبى عثمان الجاحظ ٣/ ١٣١ ، ١٣٢ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث ـ كما أرى ـ فيما يلى:

١ ـ بيان أثر السياق والمقام فى اختيار المفردات داخل النص.

٢ ـ التأكيد على انتفاء الترادف فى لغتنا العربية.

٣ ـ بيان وجه الإعجاز فى العلاقة بين أسماء الجنة وأصحابها وكذا بين أسماء النار وأصحابها.

٤ ـ الكشف عن العلاقة بين معنى اللفظة فى اللغة وأعمال أصحابها فمعنى الجحيم مثلا له علاقة بعمل أهل الجحيم.. وهكذا.....

منهج البحث:

يرتسم هذا البحث لنفسه المنهج التحليلى، فيبدأ باستقصاء عدد مرات الذكر للكلمة فى القرآن الكريم، ثم يلقى الضوء على مدلولها من خلال المعجم، ثم يكشف عن السياق والمقام الذى ورد فيه كل لفظ. وفى النهاية يبرز وجه البلاغة، وروعة الإعجاز من خلال التناسب بين: معنى اللفظة وأعمال أصحابها مما يحتم اصطفاءها هى دون غيرها.

خطة البحث:

وفيها المقدمة التى تكشف عن موضوع البحث وأهميته ومنهجه وخطته ثم بدأت باسمى الجنة والنار العلمين، وبخاصة حال اجتماعهما.

ثم عرجت على مواضع الإفراد ومواضع التثنية ومواضع الجمع لاسم الجنة.

ثم كان الحديث عن الأسماء الأخرى للجنة وكانت كما يلى: [عدن ـ جنة الخلد ـ جنة المأوى ـ جنة النعيم ـ الفردوس].

ثم أسماء النار وكانت كما يلـى: [جهنم ـ الويل ـ الجحيم ـ سقر ـ السعير ـ الحطمة ـ الهاوية ـ الغى ـ لظى].

ثم كانت الخاتمة ومنها أوجزت ما توصل إليه البحث، وأتبعت ذلك بفهرس للمراجع ثم بفهرس للموضوعات.

بلاغة النظر فى المفردات:

من المسلم به فى لغة المسلمين أن إطلاق كلمة (الجنة) يصرف الذهن إلى هذا المكان الذى أعده الرحمن لعبادة الصالحين.

وهذا ما أطلق عليه أهل اللغة بالدلالة الوضعية، إذ هى: (كون اللفظ بحيث إذا أرسل علم منه المعنى، للعلم بوضع ذلك اللفظ لهذا المعنى)(١). ومن المسلم به أيضا أن البلاغيين صرفوا جل اهتمامهم إلى الكلمة داخل السياق، ولم يعتنوا بها حالة انعزالها عنه. إذ لا مزية للفظة على أخرى، فالفضيلة والشرف إنما يحصل من موائمة الكلمة للسياق والمقام، يقول الإمام عبد القاهر ـ رحمه الله ـ (الألفاظ المفردة التى هى أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها فى أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها من فوائد، وهذا علم شريف. وأصل عظيم)(٢). وهذا يعنى أن عزل الكلمة عن سياقها يفقدها جمالها، ويخرجها من حلبة المنافسة مع قرنائها، فلا فضل (لقعد) على (جلس) إلا بالنظر إلى موضع كل منهما من الكلام، وهذا لب نظرية الإمام عبدالقاهر ـ نظرية النظم ـ والتى قال عنها: (ومختصر الأمر أنه لا يكون الكلام من جزء واحد وأنه لابد من مسند ومسند إليه)(٣).

---

(١) تيسير التحرير لأمير بادشاه ص ٨٠.

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ص ٣٥٠ ـ ت/ محمود شاكر: مطبعة الخناجى بالقاهرة

(٣) دلائل الإعجاز ص ٧.

والبحث عن بلاغة[1] اصطفاء كلمة دون أخرى لابد له من مدار، ومرتكز، أعنى: أنه لابد من الإشارة إلى أن الأصل الذى عدل عنه إلى غيره فى هذا البحث هو كلمة الجنة وكلمة النار ـ فهما الأصل، وما سواهما عدول عنه ولا يدعى أحد أن المجئ بالأصل يخلو من الفائدة، ويتعرى من المزية، فهذا كلام لا يقوله إلا من حرم لذة العربية.

كما أنه لا يمكن اعتبار هذا العدول عن كلمتى الجنة والنار إلى غيرهما ضربا من الترادف؛ لأن هذه القضية أخذت من أهل اللغة الجهد الكثير، ويكاد يجمع المتخصصون على إنكارها، ولذلك وجب التعريج هنا على هذه القضية.

هل هذه الكلمات مترادفة؟

أعنى هل كلمة الجنة، وعدن، ودار السلام، جميعا أسماء مترادفة للجنة، وما الترادف؟ وهل له حقيقة فى الوجود اللغوى؟ . . . لقد جمع السيوطى آراء العلماء فى هذا فقال فى كتابه المزهر:

قال الإمام الفخر: «المترادف» هو الألفاظ المفردة الدالة على شئ واحد باعتبار واحد]. قال: واحترزنا بالإفراد عن الاسم والحد، فليسا مترادفين. وبوحدة الاعتبار عن المتباينيين كالسيف والصارم. فإنهما دلا على شئ واحد لكن باعتبارين، أحدهما على الذات والآخر على الصفة. والفرق بينه وبين التوكيد: أن أحد المترادفين يفيد ما أفاده الآخر كالإنسان والبشر، وفى التوكيد يفيد تقوية الأول. والفرق بينه وبين التابع. أن التابع وحده لا يفيد شيئا كقولنا: عطشان نطشان.

---

(٤) قلت بلاغة على اعتبار أن البلاغة والفصاحة بمعنى واحد كما نبه الإمام عبدالقاهر. راجع دلائل الإعجاز ـ ت شاكر من ص ٣٥ ـ ٥٥.

قال:

ومن الناس من أنكره، وزعم أن كل ما يظن من المترادفات فهو من المتباينات إما لأن أحدهما اسم للذات، والآخر اسم للصفة، أو صفة الصفة. . . .

وقال التاج السبكى: ذهب بعض الناس إلى إنكار المترادف فى اللغة العربية، وزعم أن كل ما يظن من المترادفات، فهو من المتباينات التى تتباين بالصفات كما فى الإنسان والبشر، فإن الأول موضوع له باعتبار النسيان، أو باعتبار أنه يؤنس والثانى: باعتبار أنه بادى البشرة. . . وتكلف لأكثر المترادفات بمثل هذا المثال العجيب.

ونقل عن ابن الصلاح ما يلى:

يسمى الشىء الواحد بالأسماء المختلفة نحو: السيف، والمهند، والحسام والذى نقوله فى هذا: أن الأسم واحد وهو السيف. وما بعده من الألقاب صفات ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخر، وقد خالف فى ذلك قوم، فزعموا أنها وإن اختلفت ألفاظها فإنها ترجع إلى معنى واحد وذلك قولنا: سيف وعضب وحسام.

وقال آخرون: ليس منها اسم ولا صفة إلا ومعناها غير معنى الأخر قالوا: وكذلك الأفعال، نحو: مضى، ذهب، وانطلق، وقعد، وجلس ورقد، وقام وهجع.

قالوا: ففى قعد معنى ليس فى جلس، وكذلك القول فيما سواه، وبهذا نقول. . . . . واحتج أصحاب المقالة الأولى بأنه لو كان لكل لفظة معنى غير معنى الأخر لما أمكن أن نعبر عن شىء بغير عبارة. وذلك

أن نقول فى «لا ريب فيه» لا شك فيه. فلو كان الريب غير الشك لكانت العبـارة عن معنى الريب بالشك خطأ، فلمـا عبر بـهذا عن هذا علم أن المعنى واحد.

قالوا: وإنما يأتـى الشاعر بالاسـمين المخـتلفين للمعـنى الواحد فى مكان واحد تأكيدا ومبالغة. . . .

ونحن نقول: أن فى قعد معنى ليس فى جلس، ألا ترى أنا نقول: قام ثم قعد، وأخذه المقيم والمقعد، وقعدت المرأة عن الحيض ونقول لناس من الخوارج قعد، ثم نقول: كان مضجـعا فجلس فيكون القعود عن قيام والجلوس عن حـالة هى دون الجلوس لان الجلوس: المرتفع، والجلوس: ارتفاع هو دونه، وعلى هذا يجرى الباب كله.

وأمـا قولهم: إن المعـنيين لو اخـتلفـا لما جاز أن يـعبـر عن الشىء بالشىء فـإنا نقول: إنما عـبر عنه مـن طريق المشاكلة، ولسنا نقـول: إن اللفظتين مخـتلفتان فيلزمنا ما قالوه، وإنما نقـول: إن فى كل واحدة منها معنى ليس فى الأخرى.

ونقل عن ابن على الفـارسى أنه قـال: كنت بمجلس سـيف الدولة بحلب وبحـضرة جمـاعة من أهل اللغـة وفيـهم ابن خالويه، فـقال ابن خالوية: أحفظ للسيف خمسين اسـما، فتبسم أبو على، وقال: ما أحفظ له إلا اسما واحدا وهو السيف.

قال ابن خالويه: فأين المهند والصارم وكذا وكذا. . . .؟

فـقال أبو على: هذه صـفـات، وكأن الشـيخ لا يفـرق بين الاسم والصفة وقال الشيخ عز الدين: والحـاصل أن من جعلها مترادفة ينظر إلى

اتحاد دلالتـها على الذات، ومن يمنع ينظر إلى اختـصاص بعضـها بمزيد معنى، فهى تشبه المترادفة فى الذات، والمتباينة فى الصفات.

قال بعض المتـأخرين: وينبغى أن يكون هذا قـسما آخر، وسـماه: المتكافئة قال: وأسماء الله تعالى وأسماء رسوله ﷺ من هذا النوع، فانك إذ قلت: إن الله غـفور رحيم قـدير، تطلقهـا دالة على الموصـوف بهذه الصفات][1].

وإذا عدنا إلى علم البلاغة وإمامه عبد القاهر يلحظ أنه ـ أقام نظريته ـ نظرية النظـم ـ على دعامة رئيسة (تنتـفى من علم الإعراب خالصه ولبه وتأخذ لك منه أناسى العيون وحبات القلوب)[2].

وخالص عـلم الإعراب إنما هو عـلائق الكلم بعضـه ببعض، فـهو مكمن المزية وموطن الإعجاز. وإذا كان هذا مـخصوصا بنظرية النظم فإن البلاغة أوسـع مدى، لأنها لا تكفى بالنظر فى العلائق، بل تشـمل أيضا النظر فى اختيار اللفظ، وصيغته وموقعه فى السياق.

ولذلك قال: (وجـملة الأمر أن ههنا كلامـا حسنه للفظ دون النظم وآخر حسنه للنظم دون اللفظ. وثالثا قد أتاه الحـسن من الجهتين ووجبت له المزية بكلا الأمرين)[3].

وكل هذا دليل دافع على أن اختـيار اللفظ جزء من البـلاغة بل هو شطر البلاغة أما الشطر الآخر فكان خلف العلائق والترتيب.

---

(١) المزهر فى علوم القرآن وأنواعها لجلال الدين السيوطى، مطبعة عيسى البابى الحلبى ج ١ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٥.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٢. ت/ محمود شاكر ـ الخانجى.

(٣) السابق ٤٤.

كمـا أن اختيـار اللفظ قد يصل إلى حـد الاعجاز لذلـك لم يغفل الامام فضيلة اصطفائه دون سواه، فتـراه يقول: (ولا جهة لاستعمال هذه الخصـال ـ يعنى حسن الدلالة وتمامها وتـبرجها ـ غـير أن تأتى المعنى من الجهة التـى هى أصل لتأديته وتختـار اللفظ الذى هو: أخص به وأكشف عنه وأتم له وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية)(١).

إن مـعنى ذلـك أن إيثـار لفظ دون غـيـره لابد لـه من غـرض بل أغراض:

أولها: أن هذا اللفظ هو المخصوص بالمراد دون غيره.

وثانيها: أنه الكاشف عن خبئ المعنى دون غيره.

وثالثها: أنه الدال على تمام المعنى دون غيره.

ولا شك أن هناك ألفاظا أخرى تشـترك مع اللفظ المذكور فى المعنى العام لكن يبقى لكل واحد منها خصوصيته. ولذلك كان الامام رحمه الله يعلق على اختيـار اسم دون اسم، وفعل دون فعل وكذلك اختـيار حرف دون حرف.

يقول مـثلا فى تعليقه علـى قول الله سبحـانه «وقيل يا أرض ابلعى ماءك» (ومعلوم أن مبـدأ العظمة فى أن نوديت الأرض ثم أمرت، ثم فى أن كان النداء بـ (يا) دون (أى) نحو (يا أيتها الأرض)(٢)، وهذا يعنى أن لحرف النداء (يا) خصـوصية تخالف الخصوصـية الكامنة فى حرف النداء (أى).

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٤ . ت/ محمود شاكر ـ الخانجى.

(٣) دلائل الإعجاز ٢٥.

وكذلك الخصوصية فى الفعل تـخالف الخصوصية فى الاسم، يقول فى ذلك (واعـلم أن ليس النـظم إلا ـ أن تضع كـلامك الـوضع الذى يقتـضيه علم النحـو وتعمل على قوانـينه وأصوله. . . . . وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه.

فينظر فى الخبر إلى الوجوه التى تراها فى قولك (زيد منطلق، وزيد ينطلق. . . . . وفى الشرط والجزاء إلى الـوجوه التى تراها فى قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج. . . . . إلخ، وفى الحال إلى الوجـوه التى تراها فى قولك: جاءنى زيد مـسرعا، وجاءنى يسرع. . . . . فـيعرف لكل من ذلك موضـعه ويجئ به حيث ينبغى له)(١).

وهذا يعنى وجود فرق بين منطلق، وينطلق ـ وبين أخرج، وخارج ـ وبين مسرع، ويسـرع وإذا كان هذا الفرق شاخـصا فى الألفاظ ذات المادة الواحدة فهـو بلا شك موجود فى الكلمات التى يـوصف بها شىء واحد كما وصفت الجنة أو سمـيت بـ (عدن ـ دار السلام ـ الفردوس. . . . . إلى أخره وكما سميت النار (لظى ـ جهنم ـ السعير).

وقبل الحـديث عن هذه الكلمات وخـصائصـها أرى الوقـوف قليلا على اسم الجنة والنار لإلقاء الضوء على الموقع والدلالة.

---

(١) دلائل الإعجاز ص٨١، ٨٢ - ت/ محمود شاكر. مطبعة الخانجى بالقاهرة.

البلاغة فى التصريح باسمى الجنة والنار

ذكر لفظ الجنة فى القرآن الكريم كثيرا، وكذا لفظ النار، وهذا يعنى أن هناك مقامات تستدعى ذكر دار النعيم باللفظ العلم عليها وكذا دار العذاب وقبل التعريج على هذه المقامات، ينبغى أولا معرفة معنى لفظة الجنة، ولفظة النار فى لغة العرب.

معنى الجنة والنار:

يقول الراغب فى كتابه المفردات فى غريب القرآن: [الجنة: كل بستان ذى شجر يُستر بأشجار الأرض، قال الله تعالى: «لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال» سبأ ١٥.

قيل: وقد تسمى الأشجار السائرة: جنة، وسميت الجنة إما تشبيهًا بالجنة فى الأرض وإن كان بينهما بون. وإما لسترة نعمها عنا المشار إليها بقوله: «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين» السجدة ١٧)[1].

ويقول ابن منظور: (الجنة هى دار النعيم فى الدار الآخرة. من الاجتنان هو الستر لتكاثف أشجارها. وتظليلها بالتفاف أغصانها، وسميت الجنة وهى المرة الواحدة من مصدر جنه جنا إذا ستره. . . . والجنة: الحديقة ذات الشجر والنخيل، قال أبو على فى التذكرة لا تكون الجنة فى كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهى حديقة وليست بجنة][2].

---

(١) المفردات فى غريب القرآن الكريم ـ لحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى ـ (جن) ـ أعده للنشر/ محمد أحمد خلف الله ـ الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية ـ طبعة دار المعارف.

(٢) اللسان (لسان العرب) لابن منظور ـ طبعة دار المعارف ـ مادة (جن).

أما النار: (فتقال للهيب الذى يبدو للحاسة. قال تعالى: «أفرأيتم النار التى تورون» الواقعة ٧١. وتقال للحرارة المجردة، ولنار جهنم المذكورة فى قوله تعالى «النار وعدها الله الذين كفروا» الحج ٧٢](١)، فهو اسم يلحظ فيه اللهب والحرارة كما يلحظ فيه التأنيث، يقول ابن منظور: [النار معروفة وهى أنثى... وقد تذكر ...](٢).

والعقل عند ذكر لفظ الجنة يستحضر عموم النعيم، وكذا عند ذكر لفظ النار يستحضر عموم العذاب فلفظ الجنة جامع لكل خير دون اقتصار على شىء منه.....

فمعنى قوله تعالى: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين» آل عمران ١٣٣، يستحضر السامع كل أصناف النعيم المتخيل ..... ولكن لماذا استحق هؤلاء كل أصناف النعيم؟

إن إجابة هذا السؤال يوضحه السياق حين ذكر أفعال المستحقين لكل نعيم فلقد فعلوا كل أصناف الخير، ولم يقتصروا على واحد، أو إن شئت قل لم يتميزوا فى فعل دون فعل من أفعال الخير بل إنهم فعلوا كل خير وبرزوا فى كل فضل فحيث وجدت طاعة الله وجدتهم، وقد ذكر القرآن نموذجا من هذا حين عدد بعض الأفعال فقال: الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله. . . إلخ «آل عمران ١٣٣ ـ ١٣٦.

---

(١) المفردات مادة (نور).

(٢) اللسان (نور).

إن هذا التعدد فى فعل الخيرات، جعل هذه الطائفة لا تختص بمكان فى الجنة بل إنها تتنعم بكل ما فى الجنة حيث تشاء. . . . . وتبرز بلاغة التصريح باسمى الجنة والنار عند جمعها فى سياق واحد وقد جمعت الجنة والنار فى آيات كثيرة منها قوله تعالى: «كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» آل عمران ١٨٥.

وهذه الآية جاءت فى معرض التفريق بين الخبيث والطيب قال تعالى «ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب» آل عمران ١٧٩.

وفى السياق تعرض الآيات للصنف الطيب وتقول إنهم «الذين استجابوا لله والرسول».

وهذا عموم فى الطاعة، إنها استجابة لكل أمر من الله أو من الرسول ﷺ لكن الكافرين على النقيض من هذا، فلقد وصفوا بأنهم «يسارعون فى الكفر» كما وصفوا بأنهم «اشتروا الكفر بالإيمان». وهم بهذا معرضون عن عموم الدين.

فلما كان المؤمنون مستجيبين لعموم الدين، ذكر لهم فى الجزاء اسم الجنة ولما كان الكافرون معرضين عن عموم الدين ذكر لهم فى الجزاء اسم النار وهكذا فإن العموم فى العمل يقابله العموم فى الجزاء.

وقد يذكر اسم الجنة والنار ويراد بهما الأعمال المؤدية إليهما، وذلك كما فى قوله تعالى: «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن

خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون». البقرة ٢٢١.

إن المشركين لا يدعون إلى نوع واحد من الخبائث، بل إنهم يدعون إلى كل خبيث وإلى كل ذنب لذلك قيل: «يدعون إلى النار» بهذا الاسم العام، يقول البقاعى (يدعون إلى النار: أى الأفعال المؤدية إليها. . . والله يدعوا إلى الجنة، أى الآفعال المؤدية إليها)(١).

أى أن الله ـ سبحانه ـ على النقيض من المشركين، فهو يدعو إلى كل خير وإلى كل صالح، لذلك قال: «والله يدعو إلى الجنة».

بلاغة الإفراد والتثنية والجمع لاسم الجنة:

ومما ينبغى الإشارة إليه هنا أن اسم الجنة جاء مرة مفردا، ومرة مثنى ومرة فى صيغة الجمع، فما وجه البلاغة فى كل؟

أولا - صيغة الإفراد ودلالتها:

يلحظ أن اسم الجنة يأتى بصيغة المفرد غالبا حين يخصص كل مؤمن بالنعيم الخاص به، فإذا لحظت خصوصية الجزاء لكل مسلم ذكرت الجنة مفردة، وكأنما جعلت له وحده يتنعم فيها حيث يشاء، وهذا يعطى شعورا بالملكية وهذه إضافة فى الثواب أعنى الملكية الخاصة، انظر مثلا إلى قول الله سبحانه «تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا» مريم ٦٣ فالملكية والاختصاص يظهران بوضوح شديد.

---

(١) نظم الدار فى تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعى، ص ٢٥ دار الكتاب الإسلامى ـ القاهرة الطبعة الأولى.

وكـذلك فى قـوله تعـالى: «قـيل ادخل الجنة قـال يا ليت قـومى يعلمون» يس ٢٠٦.

هذا الحديث عن فرد، وجزاء هذا الفرد ولما كان كذلك أفردت الجنة وقيل «ادخل الجنة» أى الجنة التى أعدت لك وحدك.

وكذلك قوله: « فأما إن كـان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم» الواقعة ٨٩.

وكذلك فى: «فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية» الحاقة ٢١.

وغير ذلك كثير.

فالسيـاق القرآنى إذا تحدث عن جزاء الفرد المسلم ذكر الجنة بـصيغة الإفراد غالبا، ليبين معنى الاختصاص والملكية والانفراد بالنعيم، وهذا هو لب الإعجاز الـبلاغى فى القرآن الكريم ـ أعنى: مطابقة الكلام لمـقتضى الحال.

أما صيغة التثنية: مرادا بها جنة الآخرة(١).

فلقد جاءت ثلاثة مرات جميعا فى سورة الرحمن وذلك قوله «ولمن خاف مقـام ربه جنتان. . . ومن دونهما جنتان. . . مـتكئين على فراش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان» الرحمن ٤٦ ـ ٥٤ ـ ٦٢

وهذه التثنـية عرج عليـها الزمـخشرى فـقال: (فإن قـلت: لم قال «جنتـان» ؟ قلت «الخطاب للثـقلين، فكأنه قـيل: لكل خائـفين منكمـا جنتان: جنة للخائف الإنسى، وجنة للخـائف الجنى ويجوز أن يقال جنة

---

(١) هناك صيغ أخرى يراد بها بعض جنان الدنيا كمـا فى جنتى سبأ «لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان» سبأ ١٥.

لفعل الطاعات وجنة لـترك المعاصى وأن يقال جنة يثاب عليـها، وأخرى تضم إليها على وجه التفضـيل كقوله «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة»(١)، ويزيد الجمل بعض التأويلات فيقـول (قيل إن الجنتين، جنته التى خلقت له وجنة ورثها، وقـيل إحدى الجنتـين منزله والأخرى منزل أزواجه كـما يفعل رؤساء الدنيا وقيل إن إحدى الجنتين مسكنه والأخرى بستانه وقيل: إحدى الجنتين أسافل القصور والأخرى: أعـاليها، وقال مقاتل: هما جنة عدن وجنة النعـيم وقال الفراء: إنما هى جنة واحـدة فثنى لرءوس الآى، وقـيل إنما كـانتـا اثنتيـن ليتـضـاعف له السـرور بالتنقل من جـهـة إلى أخرى)(٢)، والبلاغة لا تؤيد كل ما قيل... لكن هذا الرأى الآخير هو الرأى ـ عندى ـ لأن السـورة تضاعف الثـواب لمن أحسن كـما ضـاعفت العذاب لمن أساء. فالذين أرادوا أن يتحدوا قـدرة الله سبحانه كان عقابهم «شـواظ من نار ونحـاس» ويؤخذون « بالنواصى والاقـدام» وفى جـهنم يتنقلون من عذاب إلى عذاب ومن سعير إلى سعير يقول ربنا «هذه جهنم التى يكذب بهـا المجرمون يـطوفون بينهـا وبين حميـم آن» (أى يترددون ويسعون بينها وبين حميـم فيحرقون بها فيستغيثـون منها فيسعى بهم إلى الحميم فيسقون منه ويصب فوق رءوسهم فإذا استغاثوا منه يسعى بهم إلى النار.... وهـكذا)(٣). وهذه الازدواجية فى العذاب تقابلهـا مضاعفة للثـواب لمن خاف مـقام ربه، وهذا التـركيب مـراد به كل فرد من أفـراد الإنس وكل فرد من أفراد الجن، فكل فرد له جنتان مـا دام قد خاف مقام

---

(١) الكشاف ٤/ ٤٥٢ ـ دار الكتاب ـ بيروت.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ٤/ ٢٦٢ ـ مطبعة عيسى البابى الحلبى.

(٣) السابق ٤/ ٢٦٢.

ربه، لكن الذى ينبغى أن أشير إليه هنا أن الجنتين اللتين يثاب بهما كل تقى منزلان فى الجنة؛ فإذا كان لكل مؤمن منزلة فى الجنة ومرتبة عالية فإن هؤلاء لهما مرتبتان ومنزلتان يتنقلون بينهما. . . . ، وإنما عدل القرآن الكريم عن وصفهما بالمنزلتين أو المكانين حتى لا يظن بهما النقص عما فى الجنة من نعيم، ففيهما كل ما فى الجنة من أنواع النعيم. . . ؛ لذلك أطلق عليها «الجنتين» لكن فى النهاية هما منزلتان فى الجنة الكبيرة التى يثاب فيها المؤمنون، ويؤكد هذا ما جاء فى سورة النازعات فى ثواب هذا الفريق أيضا أعنى «من خاف مقام ربه»، «فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى» ولكن المعنى هنا يختلف عن المعنى هناك، ففى سورة النازعات تتحدث الآية عن المصير والعاقبة لمن خاف مقام ربه فى الدنيا فكانت بلا شك: الجنة.

وفى سورة الرحمن، كانت الآية تتحدث عن كم هذا الثواب وقدر هذا العطاء فى الجنة، فكان العطاء: جنتين فيهما كذا وكذا.

صيغة الجمع وبلاغتها:

وردت هذه الصيغة فى ثمان وثمانين آية مرادا بها جنة الآخرة، وكثرة ما فيها من نعيم ومن الملاحظ فى هذه المواضع أنها جاءت ثوابا لجموع المؤمنين (غالبا) وكأنه جعل لكل منهم جزءاً منها، وقد يأتى هذا اللفظ ثوابا للفرد المؤمن نحو: ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار» الفتح ١٧ ونحو: «ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار» الطلاق ١١.

وعلى هذا يكون المعنى أن من يفعل ذلك حق له أن يتمتع بكل ما فى هذه المراتب جميعا، وكأن الجنة جميعا منزل له، له فيها ما يشاء

ولا يحجب عن منزلة من منازلها وعلى هذا فالمعنى عند جمع لفظ الجنة إما أن يكون: ثوابا للجميع أى لكل مؤمن جزء من الجنة وذلك نحو «وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار» البقرة ٢٥، ونحو «والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار» النساء ١٢٢.

فلما كانوا جمعا، وأتوا بكل خير، كانت لهم الجنة بكل ما فيها من نعيم.

كما يلحظ أيضا فى صيغ الجمع قوله «تجرى من تحتها الأنهار» لأن من لوازم هذا النعيم جريان الماء، وهذا أمر ملاحظ فى بساتين الدنيا فما بالك بالأخرة؟.

وما قيل فى السابق من اختيار لفظ الجنة أو الجنات يقال هنا، لأن هذا اللفظ يشير إلى أن أصحابه أتوا بكل خير، ولم يقتصروا على جانب دون جانب لذا أعطاهم الله من كل شئ فى الجنة ولم يخصهم بنعيم دون نعيم.

أسماء الجنة والدلالة البلاغية

أولا : بلاغة التعبير بـ(عدن)

ورد ذكر هذا الاسم إحدى عشرة مرة وذلك على النحو التالى:

١ ـ «وعـد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجـرى من تحتـها الأنهـار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم» التوبة ٧٢.

٢ ـ «والذين صبـروا ابتغـاء وجه ربهم وأقامـوا الصلاة وأنفـقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السـيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عـدن يدخلونهـا ومن صلح من آبائهم وأزواجـهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليـهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» الرعد ٢٢ ـ ٢٤.

٣ ـ «وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين جنات عدن يدخلونها تجرى من تحـتها الأنهار لهم فيهـا ما يشاءون كذلك يجزى الله المتقين» النحل ٣٠: ٣١.

٤ ـ «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحـات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسـون ثيابا خضرا من سندس وإسـتبرق متكئين فيها على الأرائك نعـم الثواب وحسنت مرتفقا» الكهف ٣٠ ، ٣١.

٥ ـ «فخلف من بعدهم خلف. . . جنات عدن التى وعد الرحمن عبادة بالغيب إنه كان وعده مأتيا لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا» مريم ٥٩ ـ ٦٣ .

٦ ـ «ومن يأته مـؤمنا قد عـمل الصالحـات فأولئك لهم الـدرجات العلى جنات عدن تجـرى من تحتهـا الأنهار خالدين فيـها وذلك جزاء من تزكى» طه ٧٥ ، ٧٦.

٧ ـ «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سـابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنـات عدن يدخلونها يحلون فيـها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير» فاطر ٣٢ ، ٣٣.

٨ ـ «هذا ذكر وإن للمـتقين لحسن مـئاب جنات عدن مفتـحة لهم الأبواب» ص ٤٩ ، ٥٠.

٩ ـ «ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعـدتهم ومن صلح من أبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم» غافر ٨.

١٠ ـ «يغفر لـكم ذنوبكم ويدخلكم حنات تجرى من تحتهـا الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم» الصف ١٢.

١١ ـ «إن الذين آمنوا وعـملوا الصـالحـات أولئك هم خيـر البـرية جزاؤهم عند ربهم جنات عـدن تجرى من تحتها الأنـهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضـوا عنه ذلك لمن خشى ربه» البينة ٧ ، ٨ .

تلك هى مواضع ذكر جنات عدن وأول ما يستدعيه الذهن هو: ما خصائص هذه الجنات؟ وما وجه البلاغة فى اصطفاء هذا الاسم دون غيره، ومن هم أصحاب هذه المنزلة؟ لكن البداية هى.

ما معنى جنات عدن؟

يقول الراغب (جنات عدن: أى استقرار ونبات وعَدَن بمكان كذا: استقر، ومنه المعدن لمستقر الجواهر)[1]، وفى اللسان: عدن فلان بالمكان ـ ويعدن عدنا وعدونا: أقام وعدنت البلد: توطنته، ومركز كل شئ معدنه، وجنات عدن أى جنات إقامة لمكان الخلد، وجنات عدن بطنانها، وبطنانها: وسطها، وبطنان الأودية الموضع التى يستريض فيها ماء السيل، فيكرم نباتها وأحدها بطن واسم عدنان مشتق من العدن، وهو أن تلزم الأبل المكان فتألفه ولا تبرحه ومنه: المعدن: وهو المكان الذى يثبت فيه الناس، لان أهله يقيمون فيه ولا يتحولون عنه شتاء ولا صيفا. . . وقال الليث: المعدن: مكان كل شئ يكون فيه أصله ومبدؤه نحو: معدن الذهب والفضة والأشياء، . . وفى الحديث: (فعن معادن العرب تسألونى قالوا: نعم: أى أصولها التى ينسبون إليها ويتعارفون بها)[2].

كما إنها تعنى جنات إقامة واستقرار ودوام وأول شىء يدل على هذا هو القرآن ذاته ففى سورة فاطر يفسر القرآن معنى جنات عدن فيقول «حنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير» وقالوا: . . . «الذى أحلنا دار المقامة من فضله لايمسنا فيها

---

(١) المفردات عدن.

(٢) اللسان ـ عدن.

نصب ولا يمسنا فيها لغوب» فـاطر ٣٣ ـ ٣٥. فالإقامة والسلامة من كل سوء هى مـعنى عدن كما فـسرها القرآن الكريم وهذا يعنى أن أصحـابها قدموا من العمل مادام واستقر فى الناس، فليس أصحاب جنات عدن من أمنوا فقط، أو عمـلوا الصالحات فقط،بل لابد أن يكونوا قـد قدموا من العمل الصـالح ما يبقى حتى ينالـوا الجزاء الباقى، فاصطفـاء الكلمة من ورائه بلاغة معـجزة تنطق بمطابقة الكلام لمقتضى الحال. . . . . فـمثلا فى أية التـوبة: يقول السـيـاق: «والمؤمنون والمؤمنات بعـضهم أوليـاء بعض يأمـرون بالمعروف وينـهون عن المنكر ويـقيـمون الـصلاة ويؤتون الزكـاة ويطيعون الله ورسوله. . .» التوبة . . .إلخ، يظهر بوضوح وجه البلاغة فى اختـيار اسم الجنة . . . ذلك لأن الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر تعليم للناس الخـير، وزرع للصالحـات فيهم، وهـذا الزرع يدوم، فالدال على الخير كفاعلـه وهؤلاء دلوا الناس على الخير وظل الناس يعملون. . والثواب يعود إليهم فلما دام العمل دام الجزاء فى الآخرة.

أضف إلى هذا البقاء والاسـتقرار والتجـدد والحدوث الشاخص فى الفعل المضـارع مما يضيف على الدوام تجددا يبـرز العمل فى صورة بهـية متـجددة كل وقت. إن إرشـاد الناس إلى الخـير وزرع الصـالحات فيـهم يجعلـهم يعملون هم ومن أتى بعـدهم فتـدوم الأعمال مما اسـتلزم ثوابا يكافئ هذا الدوام فكانت جنات عدن أى جنات إقامة واستقرار ثم أضاف إلى خلودها خلودهم ولذلك قـال «خالدين فـيهـا» «فإذا كـانت الجنات خالدة دائمة فهم كذلك خالدون.

ومن أجل كل هذا نقل الزمخشرى ـ رحمه الله (حديث أبى الدرداء رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ وفيـه «عدن» دار الله التى لم ترها عين

ولم تخطر على قلب بشـر لا يسكنها غـير ثلاث: النبـيون والصـديقون والشهداء ـ، يقول الله طوبى لمن دخلك)[1]، ويلحظ هنا قوله (دخلك) كأن مجرد الدخول نعمة عظيمة، وفوز كبير ولذلك جاء السياق فى ست مـواضع يتحـدث عن دخول جنات عـدن كمـا فى آيات سورة الرعـد، والنحل، ومريم، وفاطر، وغافر، والصف ـ وذلك نحو:

جنات عدن يدخلونها ـ الرعد ٢٤.

جنات عدن يدخلونها ـ النحل ٣١.

فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيـئا جنات عدن ـ مريم ٦٠، ٦١.

جنات عدن يدخلونها ـ فاطر ٣٣.

ربنا وأدخلهم جنات عدن ـ غافر ٨.

يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحـتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ـ الصف ١٢ ـ

ومن البلاغة العـالية فى هذه الآيات أن هذه المنزلة (جنات عدن) لم تذكر إلا بعد تمهيد وتوطئة. تجعل السامع فى شوق إليها، وتجعل القلوب قبل الآذان فى لهفة لهذا الثواب، . . . تستقبله استقبال العزيز وسبب كل هذا أنها تأتى بعد تمهيد. فتعرب بدلا مما سبقها: نحو

«أولئك لهم عقبى الدار . . جنات عدن».

---

(١) أخرجه البزار من طريق زياد بن مـحمد عن محمد بن كعب القـرظى بن عبيد عنه وقال: لا نعلمه إلا من هذا الوجه.

«ولنعم دار المتقين . . جنات عدن».

«فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا . . جنات عدن». .

«ومن يأته مؤمنا قد عمل الصـالحات فأولئك لهم الدرجات العلا . . جنات عدن» طه ٥٧.

«ذلك هو الفضل الكبير . . جنات عدن» فاطر ٣٢، ٣٣.

«هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مئاب . . . جنات عدن» ص ٤٩ . ٥٠.

إن جمـيع هذه المواضع تعرب فيهـا (جنات عدن) بدلا مما سبقـها، كأن الآية تمهد لها. وتفتح القلوب لاستقـبالها، مما يزيدها شرفا وكرامة. وهذا النسق من التعـبير لم ألحظه فى الأسماء الآخـرى، مما يجعل منزلة (جنات عدن) بين باقى المنازل منزلة الرأس من الجسد. . .

بلاغة الطباق بين جنات عدن ونار جهنم:

من سنة البيـان القرآنى المقابلة بين الصـالحين والكافرين. ومـا أعد لهؤلاء وما أعد لهؤلاء . . . وفى السيـاق القرآنى كان المقابل لجنات عدن نار جهنم أو جـهنم، مما يعنى أن هناك تباينا بين المنزلتين خـاصة، لذلك لم يقابلها بـ (لظى ـ أو السعير . . . . مثلا.

والسؤال: ما وجه التباين؟

إن كلمـة جهنم فـيها مـعنى الكراهية. [تـقول: تجهـمت الرجل. وجهمـته إذا استقبلـته بوجه مكفهر، وقـيل: هو أن تغلظ له فى القول، والجهنام: القـعر البعـيد. . . . . وبئر جـهنم . . أى: بعيدة القـعر، وبه

سميت جهنم لبعد قعرها . . . وقيل: هى من الجهامة أى: كراهة المنظر]، فاللفظ فيه معنى: الكراهة فى المنظر. وبعد القعر. وفى المقابل فإن جنات عدن تحمل معنى العلو، والقرب من الله. . . .

يقول البقاعى ـ رحمه الله: [لما كان بعض الجنان أعلى من بعض. وكان أعلاها ما شرف بوصف العندية، المؤذن بالقرب. . . مما يؤكد معنى الدوام قال: «جنات عدن» أى إقامة دائمة، وهناء وصحة جسم. وطيب مقر، وموطن ومنبت](١).

فالعلو فى جنات عدن قابلة بعد قعر جهنم، والكراهة فى الاستقبال فى جهنم قابلها القرب من الله تعالى المؤذن بالعندية فى جنات عدن، وكل ذلك إبراز للمعنى وتوضيح للمنزلتين، وبلاغة معجزة جعلت كتاب الله يعلو ولا يعلى عليه.

---

(١) نظم الدر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ٨/ ٥٤٦.

البلاغة فى التعبير عن الجنة بالدار

ورد ذكـر الجنة بلفظ الدار فـى آيات كـثـيرة. وتـنوعت الكلمـات المضاف إليـها لفظ (الدار) فـتارة يقال: دار السـلام، وتارة: دار القرار، وثالثة دار المقامة . . . إلخ.

وجميع هذه الكلمات أريد منها التأكيد على معنى الدار أولا، . . .

وكلمة الدار كـما يقول ابن فـارس تشمل [الدال والواو والراء وهم أصل احـد يدل على إحداق الشئ من حـواليه. يقـال: دار يدور دورانا . . . إلخ][1]، كأن المقصود إشعار هؤلاء بأنهم فى كنف الله ـ تعالى . وفى حمايته. وذلك تعويضا لهم عما قاسوه فى حياتهم الدنيا.

إن لفظ (الدار) هو الأكثر إسعادا وبشارة لهم، لأنهم عاشوا هائمين محرومين من دار يقرون فيها. ومن حيـاة هنيئة يأمنون فيها على أنفسهم وأمـوالهم . . . . لقـد كـانت حيـاتهم الدنـيا هروبا وفـرارا، وتعـذيبـا وتنكيلا. . . . والناظر فى السـور التى جاءت فيهـا هذه الآيات يرى أنها سور مكية وهى سور [الأنعام ـ يونس ـ فاطر ـ غافر]

بل أن الآيات أكدت معنى الاسـتقرار والهدوء والسكينة لتـعوضهم عـما لاقـوه، فـقيل مـرة ـ دار السـلام ـ ومـرة ـ دار القرار ـ ومـرة دار المقامة. . . . وكل هذه الأوصاف تأكيد على معنى الهدوء والسعادة.

---

(١) مقاييس للغة لابن فارس ـ مادة ـ جهنم.

البلاغة فى إضافة لفظ الجنة إلى غيرها

قد يترك التعبير عن دار النعيم بالجنة ـ مُعَرَّفةً بأل إلى التعريف بالإضافة فيقال عنها جنة الخلد مثلا أو جنة النعيم. فما وجه ترك الاسم المعهود «الجنة» والتعبير عنه بإضافة اللفظ إلى لفظ آخر.

مما لا شك فيه أن التعريف بالاضافة له وجوهه البلاغية العالية مثل تضمن المضاف إليه تعظيما أو تحقيرا حسب السياق، كأن المقصود من التعريف بالاضافة إكساب المضاف معنى زائد كامنا فى المضاف إليه يقول العصام: «أن التعريف بالإضافة يتعلق بها نكات كثيرة... ويقول: واعتبارات الاضافة كثيرة واستخراجها يسيرة»[1] إن التعريف بالاضافة لا يراد منه إكساب الكلمة شهرة أو تأكيدا، أو استحضاراً فى الذهن.. إلخ. لأن ذلك قد يكون فى التعريف بأل وباسم الاشارة أو الضمير.. لكن التعريف بالاضافة يكسب اللفظ معنى آخر ويغذيه بماء جديد.. فحين أقول (الرجل) ـ أنا أؤكد تعريف اللفظ بأل ـ وأبغى من وراء ذلك إما إحضار العهد الذى بينى وبين المخاطب فى الذهن أو إحضار جنس الرجولة فى الذهن. وكذلك حين أعرفه بالإشارة أو غير ذلك أنا أعمد إلى اللفظ لأجليه للمستمع حتى لا يحتار فيه ولا يظن غيره.

لكن التعريف بالإضافة ليس من هذا الضرب إنما هو زيادة جديدة للمعنى، ولون آخر يضاف إلى اللفظ، وهذه الإضافة هى المقصودة فحين أقول رجل البيت أنا لا أبغى لفظ رجل بقدر ما أبغى لفظ البيت أى القائم عليه والحافظ له، وحين أقول رجل الميدان، أنا أعْمد إلى لفظ الميدان وأضيفه إلى لفظ رجل لأكسبه حياة جديدة تضاف إلى حياته.

---

(١) الأطول ١/ ١٠٨ وانظر تجريد البنانى على شرح السعد ١/ ٢٤٠.

وهكذا.

فإضافة لفظ الجنة إلى لفظ آخر لا يراد منه أن يستحضر السامع معنى الجنة بل يراد منه أن يستحضر معنى اللفظ المضاف إليه فى نحو: جنة الخلد، جنة النعيم، جنة المأوى، أن المقصود من كل ذلك هو استحضار معانى «الخلد ـ النعيم ـ المأوى» فى الذهن بالاضافة إلى لفظ جنة بالطبع.

وهذا هو الفرق بين التعريف بالإضافة والتعريف بغيرها.

والسؤال: لم آثر اللفظ المضاف إليه على غيره، ومن أصحاب هذا الجزاء وما أثر السياق فى هذا الاصطفاء؟

أولا: وجه البلاغة فى إضافة الجنة إلى الخلد

معنى الخلود: «تبرى الشئ من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التى هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود... والخلود فى الجنة: بقاء الأشياء على الحالة التى عليها من غير اعتراض الفساد عليها»(١).

وأول ما يطرأ على الذهن هو لم سميت الجنة بهذا الاسم والمعلوم أنها مخلدة؟

يقول العلامة الجمل ـ رحمه الله (فإن قيل الجنة اسم لدار مخلدة فأى فائدة فى قوله: جنة الخلد فالجواب: أن الاضافة قد تكون للتبيين وقد تكون لبيان صفات الجمال لقوله تعالى « الخالق البارئ» وهذا من هذا الباب...

---

(١) المفردات للراغب (خلد) طبعة دار المعارف.

وإضافة الجنـة إلى الخلد للمدح أو الدلالة على خلودها أو للتمـييز عن جنات الدنيا)[1]، لكنى أرى (بالإضافة إلى ما سبق) أن اختيار هذا الاسم له وجـه آخر وهو أن السـورة مكيـة تخاطـب قومـا كافـرين، لا يؤمنون ببعث ولا بنشور، بل إنهم اتخذوا من دون الله آلهة عاجزين عن كل شئ . . . يقول الله عـنهم «واتخذوا من دونه آلهة لا يخـلقون شيـئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفـسهم ضرا ولا نفعـا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشـور» الفرقان ٣. وهذا الانكار للبعث والنشور لزمه الـتأكيد على هذه الحياة وما فيها من نعـيم. . وصفة هذا النعيم. وكذلك العذاب وصفة هذا العذاب لذا تقول السورة: «بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا إذ رأتهم من مكان بعيد سـمعوا لها تغيظا وزفيرا وإذا ألقوا منها مكانـا ضيقـا مقرنين دعـوا هنالك ثبورا. . قل أذلك خـير أم جنة الخلد. .» الفرقان ١١ ـ ١٥.

إن هذا التأكيد على صفة العذاب أمر استدعاه تكذيب الكفار للبعث والنشور أصـلا لكن يبقى السؤال لم اختير من بين أوصاف الجنة صـفة الخلود، وما وجه البلاغة فيه؟ لعل السر البلاغى فى ذلك هو مقابلة جزاء أهل النار بجـزاء أهل الجنة، إن أهل النار يداومـون على الدعاء بالهـلاك والفناء من شدة العذاب لكنهم لا يهلكون يقول ربنا «وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مـقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبـورا واحدا وادعوا ثبورا كثـيرا » الفـرقان ١٤، أى لن يسـتجـاب لكم ولن تهلكوا أى لن تموتوا فالعذاب يتجدد والتنكيل مستـمر، ولما تقدم هذا . . كان من روعة البيان وحسن الثـواب الإعراب عن جزاء أهل الجنة بالضد، فـاختير فى مـقابلة

---

(١) الفتوحات الإلهية ٣/ ٢٤٨. مطبعة عيسى البابى الحلبى.

خلود أهل النار الخلود أيضا لأهل الجنة، وعبـر عن الخلود مرتين، . مرة للجنة فهى خالدة وذلك فى قوله تعالى: «قل أذلك خير أم الجنة الخلد».

ومرة للمتقين وذلك فى قوله «لهم فيها ما يشاءون خالدين».

فخلود النار وخلود أهلها فيها لزمه إيثار لفظ الخلد ليضاف هنا إلى الجنة ويقال: جنة الخلد لتتحقق المقـابلة التى تعلى من شأن الثواب وتبرز روعة الإعجاز البلاغى.

ثانيا: وجه البلاغة فى إضافة الجنة إلى المأوى:

لابد من الاشارة هنا إلى أن السـور التى ذكر فيـها لفظ الجنة مضـافا إلى غيره سور كلها مكية إلا سورتين سواء أكانت الإضافة إلى « الخلد أم إلى النعيم».

وقد جاء ذكـر ذلك السور الأتية (سورة الفرقـان أية ١٥ ـ والسجدة آية ١٩ ـ والنجم آية ١٥ ـ والنازعات آية ٣٩ ـ ويونس آية ٥٢ ـ والشعراء آية ٨٥ ـ ولقـمـان ٨ ـ والصـافـات ٤٣ ـ والواقـعـة ١٢ ـ والقلم ٣٤ ـ والمعارج ٣٨)(١).

وهذا يشـير إلى أن كـفـار مكة كـانوا فى حاجـة إلى الرد عليـهم لإنكارهم البـعث والرجوع إلى الله بعـد الموت حتى أن من آمن به فـإنه ينكر أن يكون مأواه النار، مما دعى إلى إثبات جنات النعيم للمؤمنين دون الكافرين. . لذا قيل:

---

(١) روعى فى الترتيب هنا تناول المواضع حيث ذكرت السـورة التى جاء فيها لفظ جنة الخلد أولا ثم السور التى جاء فيها ذكر جنة المأوى ثم السور التى جاء فيها ذكر جنة النعيم.

«فأما من طغى وآثر الحياة الدنيـا» النازعات ٣٧، أما المؤمنون فقيل فى شأنهم «وأما من خاف مقام ربه» (أى لعلمه بالمبدأ والميعاد)[١].

أمـا جنة المأوى، فـقـد وردت فى كل مـن (السـجـدة، والنجم، والنازعات) وجميعها سور مكية تدور سـياقها حول إثبات البعث والنشور والرجوع إلى الله وإثابة الطائع وعقاب العاصى.

قال تعالى: «وقـالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد بل هم بلقـاء ربهم كافـرون قل يتوفـاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجـعون. . . فـأما الذين آمنوا وعـملوا الصالحـات فلهم جنات المأوى. . . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار » السجدة ١٠ ـ ٢٠، فكأن السياق عن مأوى هؤلاء ومأوى هؤلاء والمقارنة بينهما فهم لا يستوون.

[ولفظ المأوى «مـصـدر من أوى يأوى، يقـول: أوى إلى كـذا أى انضم إليه قال عز وجل «إذ أوى الفتـية إلى الكهف» وقال تعالى «سآوى إلى جبل» وقال تعالى «أوى إليه أخاه» وقال « تؤوى إليك من تشاء][٢].

فـالجنة هـى الملجـأ وهى المقـر وهى دار الحـمـاية، ودار الأمـان والرحمة، والمودة يقـول الجمل «إنما قيل لها جنة المأوى لأنهـا يأوى إليها أرواح المؤمنين وهى تحت العرش ينعمون بنعيمها. . . »[٣].

إن إيثار لفظ المأوى فى هذه السوركان ردا على منكرى الرجوع إلى الله بدليل قـولهم «أئـذا مـتنا وكنا ترابا وعظامـا أئنـا لفى خلق جـديد» السجدة ١٠.

---

(١) الفتوحات الإلهية ٤/ ٤٧١.

(٢) المفردات: أوى.

(٣) الفتوحات الإلهية ٤/ ٤٧٩.

لذلك جعل ثواب المؤمنين «جنة المأوى» فذكر لفـظ المأوى كما عبر عن عقـاب الكافرين بقوله «مـأواهم النار» وذكر أيضا لفظ المأوى ليـؤكد الرجوع إلى الله سبحانه يوم القيامة.

وجه البلاغة فى إضافة الجنة إلى النعيم:

«والنعيم : النعـمة الكثيرة وهـى فعيل من نعم فهى صـيغة مبـالغة وأول موضع ذكـر فيه هذا الاسم جـاء فى سورة المائدة فى قـوله تعالى: «ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم» المـائدة ٦٥. ولقد جاء ذلك مـوافقا للمـقام والسـياق وذلك لأن السورة يكثر فيـها التحريم لكثير مما كان يحله الـكفار وأهل الكتاب فلقد حرم فـيها الميـتة والدم وما أهل لغـير الله به والمنخنقة والموقـوذة والمتردية والنطيـحة ومـا أكل السبع. . . ومـاذبح على النصب» كمـا حرم قـتل الصيد أثناء الإحرام . . إلخ.

وكثرة هذه المحرمات تحتـاج إلى نفوس ملتزمة مؤمنة بأن ما عند الله خير من هذه الأشياء وأن هذه المحرمات سيقابلها فى الأخرة: نعم كثيرة، لذلك أوثر لفظ (النعـيم) وأضـيف إلى الجنة وقيل «جـنة النعيم» وكـأنه تعويض لهؤلاء الملتزمين بما حرمه الله بالنعيم الدائم فى الآخرة.

أما مـوضع سـورة يونس والذى جاء فـيه «إن الذين آمنوا وعـملوا الصـالحات يهـديهم ربهم بإيمانـهم تجرى من تحـتهم الأنهـار فى جنات النعيم» يونس ٩. فالبلاغة فيه لها وجه آخر وذلك لأنه كان ردا على هذا الصنف الذى رضى بنعم الدنيـا وترك الآخرة. . فجاء لـفظ جنات النعيم ليبين لهم أن النعـيم الحقيقى هو نعيم الآخرة لأنهم كـما قال ربنا «رضوا

بالحياة الدنيـا واطمأنوا بها» هذا الصنف كان لابد أن تـتضح له الصورة ليرى ويوازن بين هذا النعيم الذى آثره والنعـيم الذى أعد للمؤمنين، فلما كان السياق فى الرد على هذه الطائفة أوثر لفظ النعيم على غيره.

وفى سورة الحـج يقول ربنا «الملك يومـئذ لله يحكم بينهم فـالذين آمنوا وعملوا الـصالحات فى جنات النعـيم، والذين كفروا وكـذبوا بآيتنا فأولئك لهم عذاب مهين» الحج ٥٦، ٥٨.

وهذا يشير إلى أن السـياق تفصيل لنوع الناس يوم القـيامة وقت أن يقال: «لمن الملك الـيوم» فيـقال «لله رب العالمين» وإثبـات الملك لله يعنى طلاقة المشيئة يعذب من يشاء وينعم من يشاء فالحديث عن الجزاء وهو إما عذاب وإما نعيم. فقيل إن المؤمنين فى جنات النعيم كما أن الكافرين فى عذاب مهين «فأوثر لفظ النعيم وقت الحديث عن الملك واختصاص الله به لأن تفرده سبـحانه بامتلاك الملك يعنى تفرده بالإنعـام أو التعذيب. فكان النعيم ضـد العذاب. وفى سورة الشـعراء يقول ربنا سـبحانه عن سـيدنا إبراهيم أنه قال «رب هب لى حكما وألحقنى بالصـالحين واجعل لى لسان صدق فى الأخريـن واجعلنى من ورثة جنة النعيم» الشعـراء ٨٣، وإيثار لفظ النعيم هنا إشارة إلى جزاء من طرد من نعـيم الدنيا حين قال له أبوه «واهجرنى مليا» وردا على الكافرين الذين زعموا أن أصنامهم تنفع وتضر فرد الأمر عليـهم وبين لهم سيدنا إبراهيم أن ذلك لله وحـده فقال «الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقـين وإذا مرضت فهو يشفين» آية ٧٨ ـ ٨١. . . .إلخ. فالهداية والإطعام والسقاء والشفاء وجميع ألوان النعيم من الله وحده لذلك أوثرت هذه الكلمة دون غيرها.

فكلما كان السياق سياق تنعم أو رد على الكافرين الذين آثروا نعيم الدنيا أضيفت كلمة الجنة إلى كلمة «النعيم» وقيل جنات النعيم. وذلك كما فى سورة الواقعة «والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم» فالسياق يتحدث عن ألوان هذا النعيم وقيل «يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحور عين» . . . .إلخ.

فالحديث عن النعم أوثر فيه كلمة «جنة النعيم» وإيثار نعيم الدنيا من قبل المشتركين أو الضالين يستدعى ذكر المقابل «جنات النعيم» ففى سورة القلم لما آثر أصحاب الجنة الدنيا وبخلوا بها على الفقراء جاء فى مقابلتهم أن المتقين لهم النعيم الدائم فى الآخرة قال تعالى: إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون . . . إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » القلم ١٧ ـ ٣٤ وهكذا.

بلاغة التعبير بالفردوس:

الفردوس: البستان. . . وقيل الفردوس الوادى الخصيب عند العرب كالبستان وهو بلسان الروم البستان والفردوس: الروضة، والفردوس: خضرة الأعناب قال الزجاج: وحقيقته أنه البستان الذى يجمع ما يكون فى البساتين . . . . . والعرب تسمى الموضع الذى فيه كَرْم فردوسا، وقال أهل اللغة: الفردوس مذكر وإنما أنث فى قوله تعالى: «هم فيها خالدون» المؤمنون ١١ ،لأنه عنى به الجنة، وفى الحديث نسألك الفردوس الأعلى». . . . والفردوس: المُعرَّش من الكروم والمفردس: العريض الصدر، والفردسة: السعة(١).

---

(١) اللسان: فردوس.

يقول ابن عطية:

[اختلف المفسرون فى «الفردوس» فقال قتادة: إنه أعلى الجنة وربوبتها وقال أبو هريرة: إنه جبل تتفجر منه أنهار الجنة، وقال أبو أمامة: إنه سرة الجنة ووسطها. . .

وقال عبد الله بن حارث بن كعب: إنه جنان الكرم والأعناب خاصة، من الثمار، وروى عن النبى ﷺ «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس](١).

ومن كل ذلك يلحظ أن الفردوس يحمل معنى «الخصب، ووجود أماكن للتريض والخضرة، وكثرة الأعناب فيه، والظلال والسعة ـ طولا وعرضا ـ والعلو والتوسط».

لذلك قيل أن الفردوس: البستان الذى يجمع ما يكون فى البساتين وقد نقل ابن كثير ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان فإن حقا على الله يدخله الجنة، هاجر فى سبيل الله أو حُبس فى أرضه التى ولد فيها قالوا يارسول الله: أفلا نخبر الناس؟ قال: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن(٢).

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٥.

(٢) كما أخرجه الطبرانى والترمذى وابن ماجه.

وهذا تحديد دقيق لهذه الدرجة ومن من؟ من رسول الله ﷺ - فالفردوس أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن» وقد جاء هذا الاسم فى موضعين:

الأول فى سورة الكهف والآخر فى سورة المؤمنون»

فى سورة الكهف قال ربنا «إن الذين آمنوا وعملو الصلحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا» الكهف ١٠٧.

[وسورة الكهف تدور موضوعاتها حول أمرين وهما: تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة](١).

والعجيب هنا أن الآية ذكرت أصحاب الفردوس بصفات تعد هى البداية لمراتب الإيمان فهم «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» وتلك هى بداية الرحلة مع الإيمان حيث يعلوها مراتب، كالتقوى والاحسان. . . إلخ.

لكن بالرجوع إلى سياق السورة يتضح أن الإيمان هنا والعمل الصالح مرتبط بفئة هى الأعلى، لأن هذه الطائفة التى نالت الفردوس لها عمل خاص، وهو الجهاد فى سبيل الله لنشر دين الله والتبشير والإنذار وهذا عمل الأنبياء والمرسلين، بل إن الله سبحانه هو الذى بدأ بهذا وتابع ذلك فى السورة تجد ما يلى:

فى البداية يقول ربنا «الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين

---

(١) الظلال ٤/ ٢٢٥٧.

يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا» أية ١ فالله سبحانه أول من أنذر وبشر. ثم قامت فئة بهذه المهمة من الناس بأمر من الله سبحانه حيث قيل «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» آية ٢٩، ثم قيل «وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين» آية ٥٦.

فالطائفة المؤمنة هنا ليست ككل الطوائف وعملها ليس ككل الأعمال إنها طائفة مخصوصة تبلغ عن الله، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ولذلك «قال كعب: ليس فى الجنان جنة أعلى من الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر» وهؤلاء هم خير خلق الله «ومن أحسن قولا ممن دعى إلى الله. . . . »؟! فصلت ٣٣.

ولما كان هؤلاء هم خير الخلق كان لهم خير الجزاء وهو الفردوس، ولما كان هؤلاء هم أعلى الناس قدرا وأحسن قولا كان لهم أعلى مراتب الجنة وأحسن منازل الجنة وهى الفردوس، وهكذا يكون الجزاء. . . وهل جزاء الاحسان إلا الاحسان؟

والفرق بين هؤلاء وأصحاب جنة (عدن) الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أن هؤلاء تحملوا الأذى وجاهدوا فى سبيل هذه القضية، وأوذوا فى سبيل الله ولم يشر إلى ذلك فى أصحاب جنات عدن، فالجهاد فى سبيل الله لتبليغ كلمة الله جزاؤه الفردوس، كما قال رسول الله ﷺ: «أعدها الله للمجاهدين فى سبيله».

والموضع الثانى: فى سورة «المؤمنون» وفيه يقول ربنا سبحانه: «قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء

ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون» آية ١ ـ ١١. ولا شك أن هذه الخصال التى لم تجمع فى موضع واحد فى القرآن الكريم إلا هنا جديرة بأن ترفع من يتصف بها لتجعله مستحقا للفردوس ووارثا لها. وهذا الصنف من المؤمنين جاء بأعلى الأعمال وأصفاها فهو فى صلاته خاشع وهو على صلواته محافظ، وهو مزكى دون من أو أذى وهو أمين فى كل شئ وتلك هى قمة العمل والأخلاص مما جعلهم جديرين بقمة الجنة والخلود فيها. . فقيل لأولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون». يقول البقاعى: [الذين يرثون الفردوس» التى هى أعلى الجنة وهى فى الأصل البستان العظيم الواسع يجمع محاسن النبات والأشجار من العنب وما صاهاها من كل ما يكون فى البستانين والأودية التى تجمع ضروبا من النبت فيحوزون منها بعد البعث ما أعد الله لهم فيها من المنازل وما كان أعد للكفار لو آمنوا. وهذه الآيات «من أول سورة المؤمنون» أجمع ما ذكر من وصف المؤمنين . روى الإمام أحمد فى مسنده والترمزى فى التفسير من جامعه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: كان إذا نزل على رسول الله الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل فنزل عليه يوما فمكثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وأرضنا ثم قال: لقد أنزلت على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ: قد أفلح المؤمنون»(١).

---

(١) نظم الدرر ١٣ / ١١٠ ـ ١١٢ .

ثانيا: البلاغة فى اختيار أسماء النار

سبق أن قلت إن إيراد لفظ النار فى القرآن الكريم يعنى أن أصحابها يعـذبون بكافة صنوف العـذاب دون أن يزاد فى صنف عن آخـر، لأنهم جاءوا بشتى صنوف المعاصى على سواء.

لكن قد يرد ذكـر النار بلفظ آخر نحـو: جهنم، سـقر، السعـير، الجحيم وغير ذلك فمـا الخصوصية الكامنة فى كل لفظ من هذه الألفاظ؟ وما وجه الـبلاغة فى اختيـاره دون سواه» هذا ما تحاول الأوراق الـقادمة الإجابة عنه.

أولا: بلاغة التعبير بلفظ جهنم:

ورد ذكر هذه اللفظ فى القـرآن الكريم سبعـا وسبعين مـرة وكانت أكثـر السور ورودا فيـها سورة النسـاء وسورة التوبة وسـورة بنى اسرائيل والملاحظ أن كثيـر من الآيات حددت الصنف المستحق لـهذا العذاب وهو الكافر والمنافق بل إن الصنفين جمعا معا فى أكثر من أية وذلك نحو:

«إن الله جـامع المنافـقـين والكافـرين فى جـهنم جميـعا» سـورة النساء ١٤٠.

«وعـد الله المنـافـقين والمنافقـات والكفار نار جهـنم خالدين فيـها» التوبة ٦٨.

«ياأيها النبى جاهد الكفار والمنافـقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم» التوبة ٧٣.

فالكافر والمنافق هما المستحقان لهذا العقاب.

وفى البداية مـاذا يعنى هذا اللفظ؟ يقول ابن منظور ـ رحـمه الله ـ جهنم وجهنام: القعـر البعيد وبئر جهنم وجهنام بعيـدة القعر وبه سميت جهنم لبعد قعرها.

والجهم والجهيم من الوجوه: الغليظ المجتـمع فى سماجة وقد جهم أى استقبله بوجه كريه» وأول آية ذكـر فيها هذا اللفظ هى آية البقرة والتى يحدثنا فـيها ربنا سـبحانه: عن المنـافقين حيـث يقول: «ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام وأذا تولى سعى فى الأرض ليـفسد فـيها ويـهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزه بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد» البقرة ٢٠٤ ـ ٢٠٦(١).

والبداية بصنف المنـافقين تعنى شـيئين أولهـما: أنه الأحق والأولى بجهنم دون غيره والآخر: عظم خطرهم على الدين والدنيا لذلك وصفوا فى الآية بأنهم يسعـون فى الأرض فسادا ويهـلكون الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد.

وكان اختـصاصهم بهذا العـقاب الذى يحمل بعد القـاع، وكلاحة أهله، وقبح وجـوههم لأن أفعالهـم الخبيـثة من هذا المعين. فـهم كانوا يلاقـون الناس بوجه المتـكبرين الكالح، وتأخـذهم العـزة بالأثم، فهـذه الصورة التى قدموها فى الدنيا لابد من الرد عليـها فى الآخرة بما يشابهها فكانت كلاحة وجوههم وتجهمها واسـتقبالهم بوجه كريه وكراهة منظرهم هو أول مـا يلقاه المنافق حـينئـذ. ولما كانوا يعيشـون فى الأرض فسـاد،

---

(١) اللسان: جهم.

ويبعدون بالحياة عن صورتها الجميلة كان البعد بهم فى قعر جهنم حتى لا يخرجوا منه أبدا، وهذه مطابقة معجـزة بين الفعل والجزاء فاختيار اللفظ مناسب للأفعال كما ترى.

ومن التوافق البليغ المعـجز أن الآية التالية التى ذكر فـيها هذا اللفظ كانت من نصيب الكافرين الذين يناصـبون المؤمنين العداء وكان من أظهر صفاتهم أيضا الكبر يقول عنهم ربنا «قل للذين كـفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد» آل عمـران ١٢، وكأنهم ظنوا أنه لا غالب لهم، وأن الله يعجزه هذا (وحاشاه).

فكأن الكبر هو الصفة الغالبة على أهل هذا العقاب سواء أكانوا من المنافقـين أم الكافرين، فالكبر دينـهم ولذلك قيل إن هذه الآية نزلت فى اليهود حـين أغتروا بقوتهم... نقل ابن كـثير عن محـمد بن إسحق بن يسار عن عاصم عن عمرو بن قتاده أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهـود فى سوق بنى قينقاع وقال: «يا معشـر يهود أسلموا قبل أن يصـيبكم الله بما أصاب قريشـا» فقالوا يا محـمد لا يغرنك من نفـسك أن قتلت نفـرا من قريش كانوا أغـمارا لا يعرفـون القتال إنك والله لو قاتلتنا لعـرفت أنا نحن الناس وإنك لم تلق مثلنا (إلحظ) فـأنزل الله فى ذلك من قولهم «قل للذين كـفروا ستـغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد».

ألم تر قولـهم (لعرفت أنا نحن الناس وإنك لم تلق مـثلنا) إن هذا الكبر والعزة بالأثم جزاؤه من جنسـه وهو جهنم التى تقبح الوجوه وتذل النفوس ويبـعد قاعـها، ولذلك صرح بصفـة الكبر لأصحـاب جهنم فى

سورة النمل حيث يقول ربنا سبحانـه «فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين» النمل ٢٥.

وفى سورة غافر «إن الذين يستكبرون عـن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين» غافـر ٦٠ ـ ٧٦ فصفة الكبـر للمنافقين والكافرين هـى الغالبة والتى استلزمت هذا النوع من العقاب الذى يشمل: بعد القاع لأن المتكبر كان يعلوا دائما بنفسه ويصور للأخرين أنه أعلى مكانا فكانت جهنم أبعد الأماكن قعـرا فى النار ليوافق الجزاء العمل، وثانيـا لأن المتكبر يعبس فى وجوه الناس ويولى وجه عنهم فكان الجزاء جهنم لأن من مـعانيها عبوس الوجه وكأن أهلها يـستقبلون بهذا العبوس وهذا التـجهم وهذه الكلاحة، ليكون العـدل والقسطاس فى الجـزاء وما كـان الله ليظلمهم ولكن كـانوا أنفسهم يظلمون».

بلاغة التعبير بلفظ الجحيم

ورد ذكر لفظ «الجحيم» فى القرآن الكريم ستا وعشرين مرة، وهذا اللفظ فى لسان العرب يعنى النار العظيمة التى لها مهوى، يقول ابن منظور: [كل نار عظيمة فى مهواة فهى جحيم... من قوله تعالى: «قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم» الصافات ٩٧ ... والجحيم: النار الشديدة التأجج كما أججوا نار إبراهيم على نبيا وعليه السلام، فهى تجحم جحوما أى: توقد توقدا وكل نار توقد على نار فهى جحيم، ويقال: للنار جحوم، أى: توقد والتهاب.. وأصل الجحيم ما اشتد لهبه من النار، والجاحم المكان الشديد الحر.... وجمر جاحم: شديد الاشتعال والتجحيم: الاستثبات فى النظر لا تطرف عينه، وعين جاحمة: شاخصة](١).

تلك بعض المعانى التى تدور حولها هذه اللفظة: أعنى [العظم، وكونها فى مهوى، وارتفاع لهبها وأخذها الأبصار حتى لا تكاد تنصرف عنها من هولها]. وهذا ما يغلب على اللفظ أما الصفة الغالبة على أصحابه فهى: الكفر والتكذيب بالآيات، والرسل وذلك نحو:

«والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم» المائدة ١٠ ، ٨٦.

«والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم» الحديد ١٩.

ولما كان هؤلاء يجمعون بين الكفر والتكذيب كان عقابهم نارا على نار فأصل الجحيم كما قيل ـ نار على نار، وكأنها عذاب على

---

(١) لسان العرب لابن منظور ـ طبعة دار المعارف. مادة ـ جحم.

عذاب ولا يظلم ربك أحـدا لكن السياق القـرآنى نوع فى إعرابه عن هذا العذاب فقيل مرة:

«فاهدوهم إلى صراط الجحيم» الصافات ٢٣.

وقيل «خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم» الدخان ٤٧.

وقيل «ثم إنهم لصالوا الجحيم» المطففين ١٦.

وقيل «كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم» التكاثر ٦.

فما وجـه البلاغة فى اختـيار كل من هذه الكلمات وإضافـتها إلى الجحيم.

فى آية الصـافات يقـول السيـاق: إن المكذبين كـانوا يسخـرون من الرسل متهمين إياهم بالجنون والسـحر منكرين بعثهم مرة أخرى أو بعث آبائهم «بل عـجـبـت ويسـخـرون وإذا ذكـروا لا يذكـرون وإذا رأوا آية يستسخرون وقـالوا إن هذا إلا سحر مبين . . . . » آية ١٢ ـ ١٤ إن كل هذا التـهم والسخـرية قابله تهكم وسـخرية أيضـا حيث قـيل «اهدوهم» وكأنهم عمى لا يرون وقيل «إلى صراط الجحيم» والهداية تكون إلى الخير أو الجنة، فكان ذلك ابلاغـا فى التـهكم بهم والسـخـرية منهم وكـأنهم يبحثون عن طريق للخلاص فهدتهم الملائكة إلى طريق جهنم.

فكان الجزاء لابد فـيه من أمريـن الأول: السخرية، والآخـر: بيان أنهم قليلو العـقل عديمو النظر فـالمقام مـقام سـخرية وتهكم لذلك قـيل للملائكة «اهدوهم إلى صراط الجحيم».

وفى قوله «اهدوهم» سخرية ليس بعـدها سخرية. وكونهم يدلونهم على الطريـق، فـهم من الغـبـاء وقـلة العـقل بما لا زيادة علـيـه يقـول

الزمخشرى: [عرفوهم طريق النار حتى يسلكوها.... هذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعد ما كانوا على خلاف ذلك فى الدنيا متعاضدين متناصرين][1].

أما آية الدخان فقيل فيها «خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم» ٤٧.

(وسواء الجحيم يعنى وسطها يقال: تعبت حتى انقطع سواتى وعن أبى عبيدة قال لى عيسى بن عمر: كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سوائى)[2].

ووجه اختيار هذه الكلمة يبرز فيما يلى:

المقام مقام غضب على هؤلاء الذين اصطفاهم الله ثم أنكروا وجحدوا وكفروا مما استلزم الشدة فى الأخذ والطرح بقسوة فى وسط اللهيب حتى لا يستطيعوا الخروج أو الصراخ ولذلك تلحظ فى أول السورة سورة الدخان «تمهيدا لهذا حيث يقول ربنا سبحانه «فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون يوم تبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون.....) الدخان ٩ ـ ١٦.

ثانيا: جاء ذكر ذلك بعد الحديث عن شجرة الزقوم، وهى شجرة كما قال القرآن الكريم «تخرج فى أصل الجحيم. أى فى وسطه وفى قاعه يقول الزمخشرى «فى أصل الجحيم قيل فى قعر جهنم» ٤/٤٦ .

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٩، دار الكتاب ـ بيروت.

(٢) الكشاف ٤/ ٤٥، دار الكتاب ـ بيروت.

وكل هذه الإضافات تنبئ عن مقام الغضب على هؤلاء القوم الذين اصطفاهم الله ثم انقلبوا كافرين.....

قوم أعطاهم الله ثم جحدوا. . . اسمع إلى ربك وهو يقول عنهم «لقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين ولقد اخترناهم على علم على العالمين وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاؤ مبين إن هؤلاء ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين فأتوا بآياتنا إن كنتم صادقين. . . » الدخان ٣٠ ـ ٣٦.

إن مثل هؤلاء لابد لهم من هذه الغلظة يقول الزمخشرى رحمه الله عن قوله «فاعتلوه إلى سواء الجحيم» أى: فقودوه بعنف وغلظة وهو يؤخذ بتلابيب الرجل فيجر إلى حبس أو قتل ومنه: العتل أى الغليظ الجافى إلى سواء الجحيم إلى وسطها ومعظمها» ٤/ ٢٨١.

أما قوله « وإن الفجار لفى جحيم» الانفطار ١٤ فلقد جاء هكذا دون تحديد لمكان خاص فى هذا الجحيم ولعل وجه ذلك إرادة التعذيب فى هذا المكان فقط؛ لأن السورة تحكى حال الناس يوم القيامة وتجعلهم فريقين فريق معذب وفريق منعم، ولذلك يقول القرطبى أن فى الآية تقسيما مثل قوله «فريق فى الجنة وفريق فى السعير» ١٠/ ٧٢٨٥ فلما كان السياق فى شأن يوم القيامة ويوم الدين اقتصر على ذكر المكان دون تحديد الدرجة فيه. ولعل السر فى هذا أن الآية تشمل الفجار الذين يكذبون بيوم الدين وهؤلاء يأتون من الشرور ما لا يحده حد ولا يحصيه محص، فلما كانوا كذلك جعلوا فى الجحيم دون تخصيص. وهذا يؤيد ما ذهب إليه أهل السنة من أن لفظ الفجار فى الأية يعود إلى الكفار المكذبين، ولايشمل المؤمنين العصاه أصحاب الكبائر يقول الجمل فى

قوله: «إن الفـجار لفى جحـيم» هذا اللفظ عائد على الكافـرين المكذبين بيوم الدين الذين تقـدم ذكرهم وليس شاملا لعـصاه المؤمنين لأنا لا نسلم أن مرتكـب الكبيرة من المـؤمنين فاجـر على الاطلاق فأل فى (الفـجار) للعهد الذكرى بدليل قوله «بل تكذبون بالدين»(١).

وفى سورة المطففين قيل «ثم إنهم لصالوا الجحيم» آية ١٦ أى: إنهم ملازمون للنار ومحترقون فيهـا غير خارجين منها «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غـيرها» «وكلـما خـبت زدناهم سعـيرا» القـرطبى ١٠ / ٧٢٩٨.

وقيل «لصـالو الجحيم» أى لداخلوا النار المحـرقة»(٢) ـ هذه الآيـة تفسر الآية السابـقة والتى قيل فيها «وإن الفجـار لفى جحيم» أى هم فى الجحيم يصطلون بنارها.

فأصحاب الجحيم فى الآيتين واحـد، وهم الفجار، ولقد فسر المراد منهم هاهنا فى سـورة المطففين، فلمـا قيل «كـلا إن كتاب الفـجار لفى سجين» فسر المراد بالفجار وقيل «الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آيتنا قال أساطير الأولين كلا بل ران على قلوبهم ما كـانوا يكسبون كـلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحـجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون» المطففين ٧ ـ ١٧.

ففى كل من الآيتين ما يشابه الآخرى:

فى الانفطار كان الجزاء الجحيم ـ وكذلك فى المطففين.

فى الانفطار كانت الجحيم للفجار وكذلك فى المطففين.

---

(١) الجمل ٤ / ٥٠٠ على الجلالين ـ مطبعة عيسى الحلبى.

(٢) الجلالين وعليه الجمل ٤ / ٥٠٤.

الصفة البارزة للفـجار فى كل من السورتين التكذيب. . . لكن فى سورة الافطار كان التكذيب بالدين فقيل «كلا بل تكذبون بالدين» أما فى سورة المطففين كان التكذيب بالدين وبيوم الدين فقيل «الذين يكذبون بيوم الدين . . .» إذا تتلى عليه آياتنا قال أسـاطير الأولين» ولذلك كان الجزاء فى سورة المطفـفين أشد حـيث أسند الاصطلاء إلى لفظ الجحـيم أما فى سورة الانفطار فأسند الاصطلاء إلى الضـمير العائد عليه مع تأنيـثه فقيل «وإن الفجار لفى جحيم يصلونها».

ولا شك أن إسناد الاصطلاء إلى اللفظ مع تذكيـره أشد من اسناده إلى ضميره المؤنث والسر فى ذلك درجة التكذيب فى كل من السورتين.

أما فى سورة التكاثر فـقيل «لترون الجحيم ثم لترونهـا عين اليقين» فكان العقاب مـرتبطا بالرؤية البصرية والقلبية؛ لأن سـياق السورة فى ذم من اغتروا بالحياة الدنيا وزينتها فهم أولا رأوا زينتها بأعينهم ثم دخل حبها قلوبهم وتمتـعوا بها مما لزم مـعاقـبة هذين ـ البـصر والفؤاد فـهمـا محل الاغتـرار فقيل لترون الجـحيم ـ وهذه رؤية بصرية لأن الفـعل تعدى إلى مفعول واحد، ثم قيل « ثم لترونها عين اليقين يقول الجمل» «إن قلت ما فائدة تخـصيص الرؤية الثـانية باليقـين؟ قلنا: لأنهم فى المرة الأولى رأوا لهبا لا غير وفى المرة الثانية رأوا نفس الحفرة وكيفية السقوط فيها وما فيها من الحيونات المؤذية ورؤية ذلك وقت الحشر أى يرون لهبها وعذابها، ألا ترى أن الجحيم يراها المؤمنون أيضا أى: يرون نفسها لا لهبها وعذابها»[1] وعلى هذا فالاغـترار بالدنيا والاكـثار منها بدأ بالعيـن ثم بالمعايشة فيـها والتلذذ بها فكان العقاب أيضا مبدوءا بالعين ثم بالمعاينة فى الجحيم ليعلم كل إنسان أن عقابه من جنس عمله.

---

(١) المفتوحات الإلهية ٤ / ٤٨٥ مطبعة عيسى البابى الحلبى.

بلاغة التعبير بلفظ سقر

ذكر هذا اللفظ فى القرآن الكريم أربع مرات:

الأول: «يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر» القمر ٤٨.

الثانية : «سأصليه سقر» المدثر ٢٦

الثالثة: «وما أدراك ما سقر» المدثر ٢٧

الرابعة: «ما سلككم فى سقر» المدثر ٤٢

إذن فمرة واحدة فى سورة القمر والثلاثة الأخرى فى سورة المدثر ولفظة سقر تعنى بعيدة فالسقر: البعد، وفى وجه التسمية قيل: فى السقر قولان: أحدهما: أن نار الآخرة سميت سقر ولا يعرف له اشتقاق. . ومنع الإجراء: للتعريف والعجمة وقيل: سميت النار سقر، لأنها تذيب الأجسام والأرواح والاسم عربى من قولهم: سقرته الشمس. أى: أذابته. . . والساقور: حديدة تحمى ويكوى بها الحمار والساقر: اللعان الكافر بالسين والصاد، وروى أيضا فى السقار والصقار: اللعان لمن لا يستحق اللعن، سمى بذلك لأنه يضرب الناس بلسانه من الصقر وهو ضربك الصخرة بالصاقور وهو المعول. جاء ذكر السقارين فى حديث آخر وجاء تفسيره فى الحديث أنهم الكذابون، قيل سموا به لخبث ما يتكلمون. وروى سهل بن معاذ عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال «لا تزال الأمة على شريعة ما لم يظهر فيهم ثلاث: ما لم يقبض منهم العلم ويكثر فيهم الخبث وتظهر فيهم السقارة، قالوا: وما السقارة يارسول الله؟

قـال: بشـر يكونون فى آخـر الزمان، تكـون تحيـتـهم بينهم إذا تلاقـوا التلاعن»[1].

إذن الكلمة تحمل عدة معانى منها: البعد وشدة التأثير حتى قيل إنها تذيب الاجسام والقرع والخبث والتلاعن».

وأول آية ذكرت فيها هذه اللفظة هى آية القمر وهى قوله تعالى «يوم يسحبون فى الـنار على وجوههم ذوقوا مس سقر» فمـا وجه البلاغة فى ترك لفظ النار والتعبير بهذا الاسم؟

سياق الآية فى ذكـر جزاء المجرمين وهم المشـركون من أهل مكة؛ لأن السـورة ذكرت المشـركـين من الأمم السـابقة قـوم نوح وعـاد وهود وفرعـون ثم قيل: أكفـاركم خيـر من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر» آية ٤٣.

والمعنى «أن كفاركم مثل أولئك بل شر منهم»[2]، والصفة الجامعة بينهم الكبر والاسـتعلاء وعدم الخضوع لأيـات الله ودينه ولما كانوا كذلك فلهم عذاب فى الدنيـا وعذاب فى الآخرة مـثل من سبقوا أمـا فى الدنيا فقيل «سيهزم الجمع ويولون الدبر» القمر ٤٥.

وأما فى الآخرة فـقيل «يوم يسحبون فى الـنار على وجوههم ذوقوا مس سقر» آية ٤٨ ووجه اصطفاء هذا الاسـم (سقر) لأولئك: المبالغة فى التـهديد والزجـر، ولذلك تقدم على هذا الاسم مـا يفيـد الاهانة والزلة وذلك قوله «يوم يسـحبون فى النار عـلى وجوههم» فهـذا يعنى أن المقام

---

(١) اللسان سقر والمفردات للراغب سقر.

(٢) الكشاف ٤ / ٤٤٠.

مقام غـضب من أولئك الذين جائتهم الأنبـاء عمن سبقـهم فلم يرتدعوا وظنوا أنهم أقوى وخيـر ممن سبقوهم وظنوا أنهم معصـومون من العذاب وظنوا أنهم لا يغلبون.

كل هذا الكبر وكل هذا الإجرام ناسبه هذا الاسم الذى يحمل البعد والقـرع والخـبث والتـلاعن والإذابة فى جـهنم ولأجل الاهانة قـيل لهم «ذوقوا مس سـقر» وهذا (إشـارة إلى أن مس سقـر مجـاز عن إصابتـها بعلاقة السببية)[1]، فكان مجرد مسها عذاب فما بالك بالإلقاء فيها.

وجاء فى صـحيح مـسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قـال: جاء مشركو قريش يخاصمـون رسول الله ﷺ فى القدر فنزلت «يوم يسحبون فى النار على وجـوههم ذوقوا مس سقـر» وخرجه الـترمذى أيضـا وقال حديث حسـن صحيح»[2]، ويلحظ من الآية أن هذا العذاب للمـجرمين من الكفار وكأنهم نوع خاص من الكفار لهم صـفات معينة كالكبر ولعن المؤمنين. . . إلخ.

والآيات الباقية جاءت فى سورة المدثر تتحدث آيات منها عن الوليد ابن المغيرة والسبب فى ذلك كبـره، يقول القرطبى فى قوله تعالى: ذرنى ومن خلقت وحيدا. . . . سأصليه سقر» المدثر ١١ ـ ٢٦، [المفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومى وإن كان الناس خلقوا مثل خلقه وإنما خص بالذكر لاختصـاصه بكفر النعمة وإيذاء الرسول ﷺ وكـان يسمى الوحيد فى قومه قال ابن عباس: كان الوليد يقول أنا الوحيد ابن الوحيد ليس لى فى العرب نظير، ولا لأبى نظير وكان يسمى الوحيد) ١٠ / ٧١٠٨ فهذا

---

(١) الجمل ٤ / ٢٥٠.

(٢) القرطبى ٩ / ٦٥٤٧.

الكبر جـزاؤه سقر الـتى لا تبقى ولا تذر، ولعل فى السنة مـا يؤكد هذا فالمتكبرون يحشرون يوم القيامـة على هيئة الذر ففى الحديث الذى أخرجه الترمذى فى كتاب القيامة والإمام أحمد فى مسنده «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر».

وما دام الأمـر كذلك فإن الموضوع الذى يحـيل الإنسان إلى ذر هو سقر ولذلك يقول ربنا «وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر» فالكبر جزاؤه سقر، والوليد قال عنه ربنا «ثم أدبر واستكبر» وفى الآية الأخيرة ما يشير إلى الكبر أيضـا فى قوله تعالى «مـا سلككم فى سقـر» قالوا لم نك من المصلين».

والصلاة إمارة الخضوع لله سبحانه ففـيها الركوع والسجود وهما آيتا الذل لله. وعلى هذا فـقد وضح أن الصفـة البارزة لأصـحاب سـقر هى الكبر.

بلاغة التعبير بلفظ السعير

ذكر لفظ السعير فى القرآن الكريم تسع عشرة مرة. والسعر: التهاب النار. . . والمسعر: الخشب الذى يسعر به، وناقة مسعورة، نحو موخذة ومهيجة، والسعار: حر النار، وسعر الرجل: أصابه حر النار والحرب يسعرهما سعرا وأسعرهما وسعرهما: أو قدهما وهيجهما والسعر والمسعار: ما سعرت به ويقال لما تحرك به النار من حديد أو خشب)(١).

فالكلمة تحمل معنى [التهاب النار وايقادها وتهيجها ليزداد لهيبها] والمواضع التى ذكرت فيها لفظة السعير بديلا عن النار من حيث كونها علما ثمانية مواضع، وهى المواضع التى عرفت فيها الكلمة بالألف واللام.

أما المواضع الأخرى فكان اصطفاء لفظ (سعيرا سعرت أو سعر) مراد به شدة العذاب ولم يرد به النار العلم. فقوله مثلا «أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير» لقمان ٢١، هنا لفظة السعير جاءت علما على النار مما يستلزم البحث عن وجه الاصطفاء أما قوله تعالى: «فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا» الإسراء ٩٧، فالمراد هنا (عذابا) وليست اللفظة علما على النار لأنها أضيفت إلى العلم (جهنم).

والمواضع الثمانية يتحدث أغلبها عن الشياطين وأتباعهم وأن مكانهم فى النار فى هذا الدرك الذى يسمى: السعير. فمثلا فى قوله تعالى: «ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب

---

(١) لسان العرب لابن منظور ـ سعر.

عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير» الحج ٤ وفى قوله «أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير» لقمان ٢١.

وفى قـوله «ومن الجن من يعمل بيـن يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير» سبأ ١٢.

وفى قوله «إن الشـيطان لكم عدو فـاتخذوه عدوا إنما يدعـوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير» فاطر ٦.

وفى قوله «وجعلناها رجوما للشيـاطين واعتدنا لهم عذاب السعير» الملك ٥.

كل هذه المواضع يدور سيـاقها كمـا هو واضح عن الجن وإضلالهم لصنف من الناس مما يعنى أن لفظة السعير وهى علم على النار مخصوصة بالشياطين وأتباعهم.

وإذا عقدت صلة بين دلالة لفظة السعير وأفعال الشياطين لما وجدت بعدا فـالسعير كـما قيل تحـمل معنى إلتهاب الـنار، وإيقادها وتهيجـها: ..إلخ» وهذه أفـعال الشـياطين إنهـم يوسوسـون للناس لايقاد العـداوة والبغضاء ويزينون لهم الباطل فى صورة الحق، وينفثون فى الناس الشرور ويهـيجونهـم عليهـا فلما كـان هذا دأبهم وديدنهم ناسبـهم من النار هذا الدرك «السعير» الذى تلتهب ناره ويستمر الإيقاد عليها وتهيجها لتدوم. . فناسبت الكلمة أصحـابها وتلك مطابقة لمقتضى الحال، فأفـعال الشياطين طابقها نوع العقاب.

بلاغة التعبير بلفظ الحطمة

ورد ذكر الاسم فى سورة الهمزة فقط حيث قيل فى شأن الهمازين اللمازين الذين يجمعون المال ويحسبون أنهم مخلدون «ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعده يحسب أن ماله أخلده كلا لينبذن فى الحطمة وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التى تتطلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة فى عمد ممدة»، ويبين العلامة الجمل وجه البلاغة فى اصطفاء هذا الاسم للهماز اللماز فيقول [فى الحطمة مماثلة لعمله لفظا ومعنى لأنها على وزن همزة لمزة، وفيها كسر كما فيها](١).

وقوله: فيها (أى الهمزة اللمزة) كسر كما فيها لعله أراد أن الهماز اللماز يكسر فاعل الخير ويحوله إلى البعد عنه، أو يحوله إلى الشر بلسانه فهم كالمعوقين عن فعل الخير.

مما يؤكد ما يذهب إليه هذا البحث وهو أن اصطفاء الاسم يناسب فعل أصحابه أو أن المراد كما قال الفخر ـ رحمه الله [المراد الكسر من أعراض الناس والغض منهم والطعن فيهم، . . . . أو أن الهمزة: الذى يهمز جليسة يكسر عليه عينه واللمزة: الذى يذكر أخاه بالسوء ويعيبه . . . ووصف بأنه (جمع مالا وعدده) لأنه يجرى مجرى السبب والعلة فى الهمز واللمز وهو إعجابه بما جمع من المال وظنه أن الفضل فيه لأجل ذلك فيستنقص غيره . . .)(٢).

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٤ / ٥٢٤ . مطبعة عيسى البابى الحلبى.

(٢) الفخر ٣١ / ٦٣٥ مفاتيح الغيب مطبعة دار الغد العربى.

فالإعجاز البلاغى يبدو فى ترك لفظ النار واستخدام كلمة (الحطمة) وذلك لعدة وجوه:

[أحدها: الاتحـاد فى الصورة كأنه تعالى يقـول: إن كنت همزة لمزة فوراؤك الحطمة.

الثانى: أن الهماز يكسر عينه ليضع من قدر أخيه فليلقيه الله سبحانه فى الحضيض ويقول وراؤك الحطمة، وفى الحطم كسر، فالحطمة تكسرك وتلقيك فى حضيض جهنم لكن الهمز ليس إلا كسر الحاجب أما الحطمة فإنها تكسر كسرا لا يبقى ولا يذر.

والثالثـة: أن الهماز اللماز يأكل لحـم الناس والحطمة اسم للنار من حيث إنها تآكل الجلد واللحم.

ويمكن أن يقال: ذكر وصفين: الهمز واللمز، ثم قابلها باسم واحد وقال خذ واحدا منى بالاثنين منك فـإنه يفى ويكفى فكأن السائل يقول: كـيف يفى الـواحـد بالاثنين: فـقـال: إنما تقـول هذا لأنك لا تعـرف هذا. . . . لذا قال: وما أدراك مـا الحطمة نار الله الموقدة. . . .إلخ» وكل ذلك يؤكد أن البلاغة معنية باختيار الاسم المناسب للمعنى المناسب.

بلاغة التعبير بلفظ الهاوية

لم يذكر هذا الاسم إلا فى موضع واحد وذلك فى سورة القارعة فى قوله تعالى «وأما من خفت موازينه فأمه هاوية» القارعة ٨، ٩.

(والهاوية اسم من أسماء جهنم وهى المهواة لا يدرك قعرها وقال قتادة: هى كلمة عربية كان الرجل إذا وقع فى أمر شديد يقال: هوت أمه، وقيل: أراد أم رأسه يعنى يهوون فى النار على رءوسهم . . والهاوية هى آخر الطبقات السبع)[1]، وسياق الآية لم يحدد نوعا خاصا من الذنوب، بل قيل إنه «خفت موازينه» مما يعنى أن له ميزانا وفيه بعض الأعمال الصالحة لكن ذنوبه ومعاصيه غلبت وفاقت ما جاء به من خير، ولما كان الأمر كذلك جاء التعبير بالهاوية للإشارة إلى أن كل من فى النار يهوى، لكن اصطفاء هذا الاسم به وجه آخر، وهو أن هؤلاء يدخلون النار منكبين على رءوسهم فلما كان الدخول بهذه الصفة اصطفى لفظ الهاوية دون النار، مع أنها فسرت بالنار بعد ذلك.

يقول الفخر: (أن الهاوية من أسماء النار وكأنها النار العميقة يهوى أهل النار فيها مهوى عميقا، والمعنى: فمأواه النار، وقيل للمأوى (أم) على سبيل التشبيه بالأم التى لا يقع الفزع من الولد إلا إليها وقيل: فأم رأسه هاوية فى النار ـ ذكره الأخفشى والكلبى، وقتاده قال لأنهم يهوون فى النار على رءوسهم)[2].

---

(١) الفتوحات ٤ / ٥٨٠ والقرطبى ١٠/ ٧٥٠٩.

(٢) الفخر ٣١ / ٦٠٤.

وعلى هذا فـدخول النار بهذه الـصفة ـ أعـاذنا الله جمـيعا مـنها ـ يستلزم الإعراب عنها باسم (الهاوية). يقول الزمخشرى: [لأنه يطرح فيها منكوسا](١).

وفى هذا اللفظ من البلاغة ما فيـه لأنه يحمل معنى الهلاك أيا كان نوعـه. وهذا مصـير كل من دخل النار، فكأن وجـه المناسبـة بين الاسم وبين أصحـابه هو العموم لـكل من دخل نار الآخرة. لأن موازين الخـير خفيفة.

وهنا وجه بلاغى آخـر. وهو إصطفاء خفة موازيـن الخير دون ثقل موازين السوء مثلا ـ والسر فى ذلـك هو الإعراب عن الاستخفاف بهم. وهوانهم على الله سبحانه كمـا ناسب ذلك سياق السورة التى تحدثت عن الناس وهم كـالفـراش الذى لا وزن له. ولا قـيمـة له حـتى وإن كـانوا أصحاب أقدار فى الدنيـا فإنهم يوم القيامة يصيرون كـالجبال التى تحولت إلى العـهن المنفوش. . . . . إن هذا التناسب عـجيب ومن ورائه بـلاغة عظيـمة تبـرز خفة هـؤلاء. . . . ومن خفـتهم. وعدم اسـتقـرارهم يوم القيامة. هووا فى النار بشدة. وكأنهم يلقون بأنفسهم فى أحضان أمهاتهم ـ (فأمه هاوية).

ولكنهم نسوا أنها نار حامية.

إن خفة العمل الصالح تجعل الإنسان عرضة لهذا الجزاء لذا كان من الدعاء القرآنى «ثبت أقدامنا» البقرة ٢٥.

---

(١) الكشاف للزمخشرى ٤ / ٧٩٠ دار الكتاب العربى.

بلاغة التعبير بلفظ (لظى)

ورد هذا اللفظ فى سورة المعارج فى قوله تعالى «كلا إنها لظى» ١٥ [وهى اسم لجهنم لأنها تتلظى أى تتلهب على الكفار وهو اسم منقول إذ هو فى الأصل: اللهب، ونقل علما لها، ولذلك منع من الصرف للعلمية والتأنيث .... قال الليث: اللظى: اللهب الخالص، يقال: لظت النار تلظت لظى، وتلظت تلظيا ومنه قوله «نارا تلظى» ـ الليل ١٤ ولظى: علم للنار من اللظى وهو معرفة لا ينصرف فلذلك لم ينون»(١).

وأصحاب هذا الدرك هم الكافرون الذين ردوا على رسول الله ﷺ قوله ودعوا على أنفسهم بالعذاب، إن كان ما يقول رسول الله حقا. مما جعل عقابهم نارا تتحرق وتتميز من الغيظ شوقا لتعذيبهم، لأن من رد على رسول الله أمرا فكأنما رد على الله أمره، ومما جاء فى هذا «أن الحارث بن النعمان الفهرى لما بلغه قول النبى ﷺ فى على رضى الله عنه «من كنت مولاه فعلى مولاه» ركب ناقته فجاء حتى أناخ راحلته بالأبطح ثم قال: يا محمد أمرتنا عن الله أن نشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلناه منك، وأن نصلى خمسا فقبلناه منك ونزكى أموالنا فقبلنا منك، ثم لم ترضى بهذا حتى فضلت ابن عمك علينا أفهذا شئ منك أم من الله؟ فقال النبى ﷺ «والله الذى لا إله إلا هو ما هو إلا من الله» فولى الحارث وهو يقول اللهم إن كان ما يقول محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فو الله ما وصل إلى ناقته حتى رماه الله بحجر فوقع على دماغه فخرج من دبره فقتله فنزلت «سأل سائل بعذاب

---

(١) الفخر ٢٩/ ٧٢٣.

واقـع»[1]، وهذا السياق يعكس وجـه اصطفاء هذا الاسم «لظى» لهؤلاء الذين يعتـرضون على كلام النبى ﷺ مما يزيد من الحنق والتغـيظ عليهم ولذلك قـال تعالى: «فـأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشـقى الذى كـذب وتولى» وكـأن هـذا إنـذار لكل من يعـترض عـلى أمر الله وأمـر رسوله ﷺ.

فالاعـتـراض والرد يستلزم الغضب مما يجـعل النار تتحرك وتتـغيظ إلى أن يلقـوا فيهـا. فإن أرادوا الإدبار دعـتهم ولذا قيل «تـدعو من أدبر وتولى» أى تـناديهم ليعجـلوا إليها فيـلاقوا فيها جزاء عنادهم وردهم أمر رسول الله ﷺ.

---

(١) القرطبى ١٠/ ٧٠٠٦.

الخاتمة

مما مضى يتبـين أن القرآن الكريم لم يستخدم الكلمـات دون مناسبة لأصحابها وأعمالهم فكان يختـار لكل قوم ما يناسبهم من نعيم أو عذاب حسب أعمالهم وما اختصوا به أو ما برزوا فيه من أعمال . . . وتلك هى البلاغة ـ أعنى: مطابقـة الكلام لمقتضى الحال . . . وقد ظهر ذلـك فيما مضى فمثلا.

١ ـ القرآن الكريم حين يستخدم الجنـة والنار يعبر عن عموم النعيم وعمـوم العذاب، وذلك لأن السـياق فى شأن الكـافرين الذين جاءوا بكل كـفر، أو فى شـأن المؤمنين الذين عملوا كل خـير. فاستـجابة المؤمنين لكل أمر جعل الجـزاء كل نعيم وهى (الجنة) وإعـراض الكافرين عن كل أمـر جـعل الجزاء كل عـذاب وهى (النار).

٢ ـ لحظ أن اسم الجنة جاء مرة بصيغـة الأفراد (جنة) ومرة: بصيغة التثنيـة (جنتان) ومرة بصـيغة الجـمع (جنات). ووجه كل : أن صيغـة الإفراد تأتى غالبا عند تخصـيص كل مؤمن بالجزاء وهذا يشعر بالملكية وذلك نحـو «تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقـيا. . . .» مريم ٦٣، ونحـو قيل ادخل الجنة» يس ٢٦. فإذا كان الحديث عن جـماعة المؤمنين جاء التعبير بصـيغة الجمع وذلك نحو: «بشر الذين آمنوا وعـملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار» البقرة ٢٥. أما صيغة التثنية فلقد جاءت لتشيـر إلى حالة الانتقال من نعيم إلى نعيم وفى الانتـقال فضل آخر يـعدل النعـيم لأن النفس تسأم من دوام الحـال، ولم يكن

المقصـــود تحديد مكانين إنما الأقـرب إلى السياق هو مـضاعـفة النعيم بالـتنقل من حال إلى حال، وهذا مـا تشيـر إليه صيـغة التثنية.

٣ ـ يأتى التعبير بجنات عدن لمن قدموا من الأعمال ما يدوم كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ لأن معنى (عدن) إقـامة واستقرار، فناسب الجـــزاء العـــمل، وهذا ديدن القـــرآن الكريـم كله فى استعمال لفظة دون أخـرى فى الجزاء. وفى تلك السياقات لحظ المجئ بتمهيد يفتح الباب ويشوق السامعين إلى هذه الجنات نحو «ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن» فاطر ٣٢ ،٣٣.

٤ ـ إضافـة الجنة إلى كلمـة آخرى نحـو «جنة الخلد ـ جنة المأوى ـ جنة النعيم . . . إلخ، يكسـبها معنى هذه الكلمـة التى تختار مناسبة للسياق الذى حلت فيه.

٥ ـ أن أصحـاب جنة الفردوس صنفان الأول المجاهدون فى سـبيل الله والآخر الذين أنفقوا حياتهم فى طاعة الله ولم يقترفوا ذنبا، فالفردوس أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ولابد أن يكون أصحابها لهم من الميزات ما يفوق غيرهم.

وفى أسماء النار:

كان اخـتصاص المتكـبرين بجهنم لأنهم كـانوا يعرضـون بوجوههم ويعبـسون بها فى وجـوه الناس ومن صفات جـهنم كلاحة وجـوه أهلها وملاقاتهم بوجه كريه.

أما الجحيم:

فهى لمن جمع مع التكذيب الكفر، ولذلك كان أصحابه مشهورين بهاتين الصفتين الكفر والتكذيب، وناسبتهم الجحيم لأنها كما قال أهل اللغة «نار توقد على نار».

أما سقر:

فاختصت باللاعنين والمتكبرين الذين يسلطون ألسنتهم على المؤمنين لأنهم كان يريدون تحقير المؤمنين فكان الجزاء سقر التى تحقر آصحابها حتى أنها لا تبقى شيئا ولا تذر.

أما السعير:

فاختصت بالشياطين من الإنس والجن، لما فى أفعالهم من تهيج للبغضاء والشحناء بين الناس، وكذلك دلالة السعير إذ هى النار التى تهيج وتسعر كل حين.

أما الحطمة:

فهى للهمازين واللمازين. الذين يكسرون عيونهم همزا ولمزا فكان الجزاء نارا تحطمهم وتكسرهم.

أما الهاوية:

فهى لمن يدخل النار مكبوبا على وجهه لخفة موازينه، أيا كان عمله الفاسد.

أما لظى:

فهى لمن رفض كلام النبى ﷺ ورده عليه فهو يبغى بذلك غيظ الرسول المعصوم، والمؤمنين فكان جزاؤه لظى التى تميز من الغيظ.

وبعد..

فإن الذى لا شك فيه أن اصطفاء الاسم له أسبابه ووجوهه البلاغية التى تقف من ورائه ولا توجد كلمة قرآنية إلا ولها وجه فى اختيارها واصطفائها دون غيرها وقد أثبت هذا البحث التوافق العجيب بين الكلمة وسياقها مما يؤكد إعجاز هذا القرآن ويبرهن على أنه «تنزيل من حكيم حميد» كما يبرهن على أن البلاغة المعجزة تبدأ بتخير اللفظة للمعنى والمقام المناسب لها

فاللهم إنا نسألك الجنة ونعوذ بك يا رب من النار.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المراجع والمصادر

١ ـ الأساس للزمخشرى.

٢ ـ الأطوال للعلامة العصام.

٣ ـ إعراب القرآن وبيـانه ـ محيى الدين الدرويش ـ دار ابن كـثير اليمامة.

٤ ـ بدائع الفوائد لابن القيم.

٥ ـ تفسير ابن كثير.

٦ ـ تيسير التحرير لأمير بادشناه.

٧ ـ الجامع الكبير للقرطبى.

٨ ـ حاشـية الجـمل على الجلالين المسـمى ـ الفتـوحات الإلهـية ـ للجمل.

٩ ـ الحيوان لأبى عثمان الجاحظ.

١٠ ـ دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى.

١١ ـ شروح التلخيصى.

١٢ ـ صحيح مسلم بشرح النووى ط . دار الغد.

١٣ ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى.

١٤ ـ فى ظلال القرآن لسيد قطب.

١٥ ـ الكشاف للزمخشرى.

١٦ ـ لسان العرب لابن منظور.
١٧ ـ المحرر الوجيز فى تفسير كتاب الله العزيز لابن عطية.
١٨ المزهر فى علوم القرآن وأنواعها لجـلال الدين السيوطى ـ عيسى الحلبى.
١٩ ـ المفردات للراغب الاصبهانى.
٢٠ ـ مفاتيح الغيب للفخر الرازى.
٢١ـ نظم الدرر فى تناسب الآى والسور لبرهان الدين البقاعى.